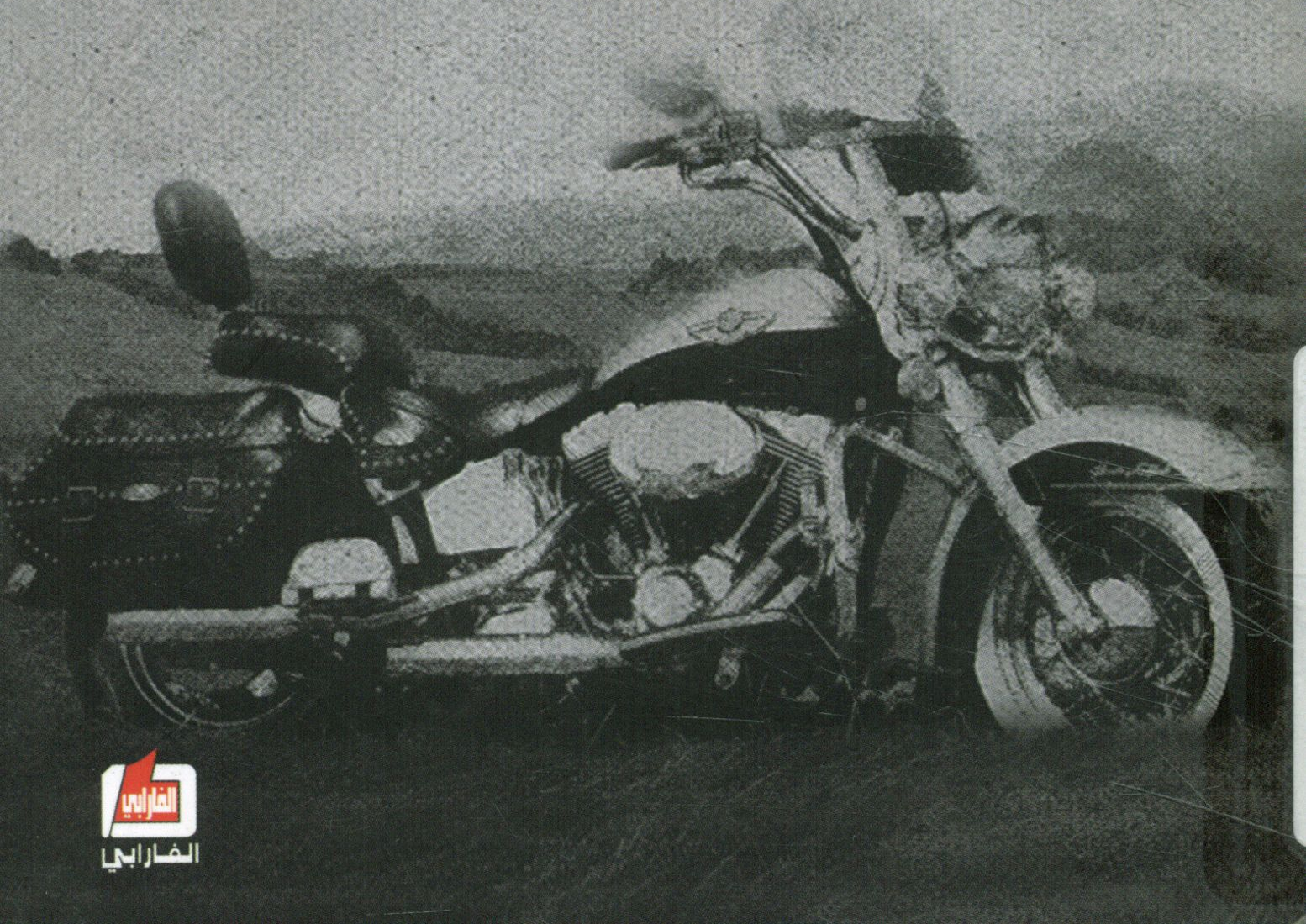
وليد الرجيب

الحب لا يفنى ولا يستحدث من عدم

رواية



الفارابي

الحب لا يفنى

ولا يستحدث من عدم

وليد الرجيب

الحب لا يفنى
ولا يستحدث من عدم

رواية

دار الفارابي

الكتاب: الحب لا يفنى ولا يستحدث من عدم
المؤلف: وليد الرجيب
alrujaibcenter@hotmail.com
لوحة الغلاف: أحمد صقر

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-630-5

الإهداء

لهما

توطئة واجبة

كنت قد عملت جلسات العودة للحياة السابقة past life regression، لمئات من العملاء في عيادتي وأماكن أخرى، وكانت النتائج مذهلة لهم ولي، واستفدنا من هذه التقنية لمعالجة جروح الماضي، والمؤثرة في حياتهم الحاضرة، مثل بعض حالات الفوبيا، التي لا يوجد لها جذور في حياة أو طفولة البعض، كما زارني بعض الأشخاص من الكويت، أو من بلدان عربية، فقط لمعرفة من كانوا في الحياة السابقة، والاستمتاع بهذه المعرفة، أو اكتشاف مواهبهم وإمكانياتهم السابقة.

وعملت جلسات العودة إلى الماضي لنفسي، فاكتشفت أنني كنت شاعراً إنجليزياً، قد يكون أسمي "جون هوبكنز"، وذلك في أعوام 1800م، والحياة التي قبلها، في أعوام 1700م، كنت كاتباً في البلاط الملكي البريطاني، ومت كبيراً بالسن، ورأيت نفسي وأنا أموت،

أما الحياة السابقة والثالثة فقد كنت في الحضارة الإغريقية، وهذا يفسر حبي لأجواء البحر المتوسط، وكل ما يتعلق به، وكذلك حبي للتاريخ اليوناني، وقصص الإلياذة منذ كنت صغيراً.

وعندما فكرت أن أكتب عن حياتي السابقة، قررت أولاً الرجوع للتاريخ، وبحثت في الإنترنت، ووجدت شخصيات كثيرة باسم جون هوبكنز، فيهم الشاعر، والفنان التشكيلي، والمفكر الذي أسس جامعة هامة.

ولأنني كنت عازباً لعوباً، في حياتي السابقة، قررت تحوير بعض الأحداث، وبعض الأمور الخاصة بعلاقتي مع ربيكا، التي لم أستطع الزواج منها، لأسباب لم تتضح لي، ومتُّ في عمر الستينات عازباً.

وخلقت علاقة موازية في الحاضر، بين سالم وشيخة، ولأني أريد تبرئة نفسي، فأنا أؤكد أن ربيكاً لم تكن سيئة.

وليد

Past life[1]

- نَمْ أعمق.. وأعمق..

أنت تستطيع أن تسترخي، وتنام نومة عميقة إذا أردت، وأنا أتساءل كيف تحب أن تسترخي، ربما فقط تريد أن تسترخي على هذا الكرسي الذي تجلس عليه الآن، أو ربما هناك شيء آخر تفكر فيه ويجعلك تسترخي أكثر، على كل حال أنت تستطيع أن تسترخي بالطريقة التي تناسبك، وتسمع ما سأقول لك..

وربما من هذه اللحظة سوف تلاحظ تنفسك، كل نفَس تزفره سيدخلك باسترخاء أعمق، وربما من هذه اللحظة سوف تركز على صوتي فقط وتهمل وتستبعد الأصوات الخارجية، وطالما تسمع صوتي سوف تنام أعمق..

---

(1) الحياة السابقة

والآن لا داعي لأن تنتبه ليديك وهما تصبحان أثقل وأثقل، ولا داعي لأن تنتبه لأجفانك وهما يصبحان أثقل وأثقل، أنت الآن مسترخ، لكن عندما أعد من العشرة حتى الواحد سوف تنام نومة عميقة جداً، كل رقم سوف يضاعف نومتك، لكن إذا وصلت إلى الرقم .واحد، سوف تكون نائماً نومةً عميقة جداً ومريحة جداً..أبدأ بالعد.. عشرة تنام أعمق وأعمق..تسعة تنام أعمق وأعمق..

استرخت عضلات وجه سالم مع صوت لوتشيا بلكنتها الإيطالية، ولغتها الإنجليزية الممطوطة:

- في هذه الجلسة سآخذك في رحلة عبر الزمن، قد تغيِّر حياتك إلى الأبد.. فقط نَمْ أعمق مع كل كلمة أقولها، وبعد قليل ستجد نفسك تنتقل مع الضوء البنفسجي الذي يأخذك إلى الفضاء، بعيداً.. بعيداً، وتلتفت لتجد الأرض تصغر وتصغر حتى تصبح نقطة صغيرة ثم تتلاشى لتجد نفسك في فراغ عظيم، سكون وسلام، تنتقل دون أن تحرك رجليك، لا تعرف يمينك أو يسارك، لا يوجد فوق أو تحت، لا يوجد ماضٍ أو حاضر.. فقط سلام وسكون رائعان..

ملامح سالم جامدة، يغط في سرنمة عميقة، يخبو صوت لوتشيا ويعلو، وكل تركيز عقله الباطن مع هذا الصوت، يرى ويشعر بكل كلمة يسمعها.

- أنت لا تحلل أو تفسر، أنت فقط تعيش اللحظة في عالمك الساحر، مفتوناً بما تراه من ألوان، ترى شهباً تتنقل تاركة خيوطاً وأذيالاً نارية خلفها، ترشق الفراغ، ترى نجوماً ترقص بسعادة على عزف لحن إلهي، يعبر عن عظمة هذا الكون الذي توحدت به الآن وفي هذه اللحظة..أنت فقط تعيش في اللحظة تاركاً العنان لعقلك الباطن للانعتاق والتحرر، وإطلاق طاقاتك وإمكاناتك وقدراتك اللامحدودة.. نَمْ أعمق..

جسد سالم كصخرة ملقية على الأرض، ثابت في جمود وتخشُّب كاملين، وقد حاد عقله الواعي، وانتبه عقله الباطن بتركيز شديد، لا يشعر بجسده، لايعرف هل يداه تحت أم فوق، يشعر كأنه نائم على غيمة وهو يستمع إلى كلمات لوتشيا:

- بعد قليل سترى نفسك تصغر وتصغر، سترى مراحل حياتك والأمور المرتبطة بها، الآن ترى نفسك في

سنّ الأربعين، ثم الثلاثين، عشرين، عشر، سنة واحدة، ثلاثة أشهر، شهر واحد.. ثم فجأة سكون وهدوء ودفء، فقط تشعر بنبض القلب وأمان رائع.. ومن بعيد ترى نقطة ضوء أبيض تنجذب معه مأخوذاً دون إرادتك وتنطلق لا تعرف إلى أين، لا تحلل ولا تفسر فقط عِشِ اللحظة.. ترَ بوابة ذهبية تنفتح فتعبرها، وتجد نفسك تهبط بهدوء ويسر إلى بقعة في الأرض، وبعد قليل سأسألك وستجاوبني، فالنائم يستطيع الكلام.

تصمت لوتشيا قليلاً، ثم تسأل سالم مقرِّبة أذنها من فمه:

- أنظر إلى قدميك، هل هما قدما امرأة أم رجل.

يأتي صوت سالم بطيئاً منخفضاً وكأنه تحت تأثير البنج:

- رجل.

لوتشيا تعلّق:

- عظيم، أنظر حولك، هل أنت في مدينة أم في طبيعة.

يأتي صوته بعد فترة:

- مدينة.

- هل بإمكانك معرفة في أي مدينة تعيش؟

يأخذ وقتاً أقصر ليقول:

- لندن.

- ممتاز وهل يمكنك معرفة التاريخ أو الحقبة، إذا كانت بقربك جريدة أو روزنامة.

يقطب سالم جبينه كأنه يبحث قبل أن يجيب:

-1850.

هل تستطيع أن ترى شكلك في مرآة أو زجاج نافذة أو مستنقع، لكنه يقاطعها وكأنه استذكر:

- الوقت صيف، وأنا خارج من المقهى أنتظر عربتي مع السائق مستنداً إلى عصاي ذات المقبض المذهب.

- إذاً أنت غني.

- نعم.. العربة يجرها حصانان أسودان.

تتركه يسترسل بينما تعابير وجهه تتغير، بعد فترة صمت تسأله:

- ما اسمك؟

أجاب فوراً:

- جون هوبكنز.

بدأت الرؤية تتضح فإجاباته أصبحت سلسة، تسأله بعد فترة:

- ماذا تعمل؟ ما هو عملك؟ هل لديك عمل؟

يجيب بلكنة إنجليزية:

- أنا شاعر معروف.

تهز رأسها مبتسمة وهي تقول:

- ممم شيء جميل.

تلحظ ابتسامة على محياه، فتسأل:

- ماذا يحدث الآن؟

يجيب من خلال ابتسامة:

- سيدة مرت من أمامي، فرفعت قبعتي وانحنيت لها، جميلة جداً، أراها للمرة الأولى.

- وهل هذا سبب الابتسام.

ابتسامته تتسع وهو يجيب:

- لا لأنها التفتت وابتسمت، دون أن يلحظها زوجها، وهذا يعني علاقة جديدة جميلة.

تتذكر شيئاً فتتساءل:

- بالمناسبة هل أنت متزوج، هل لكَ أبناء؟

قطّب جبينه باستياء:

- لا أنا عازب بكل فخر، وأكره فكرة القيد، لماذا الزواج طالما أحصل على امرأة مختلفة كل يوم؟

- إذاً أنت شاعر لعوب.

- وبكل فخر، تتقاتل النساء عليّ، يخُنَّ أزواجهن معي، والعازبات يردن الزواج مني، لكنني مستمتع بهذا الصراع وما يحمله من هدايا ثمينة، لدي علاقات سرية حتى بالأميرات الصغيرات والكبيرات.

- لم تصف لي شكلك.

- وسيم، طويل، أنيق.

قطّب جبينه مرة أخرى، فقالت لوتشيا:

- هل تريد أن تشركنا بما يحدث معك الآن، أو ما تفكر فيه؟

قال بما يشبه الشجن:

- هناك وجه نسائي أحسه ولا أراه.

- هل يعني لك شيئاً مهماً؟

- نعم، وأشعر فيه بقوة، لكن لماذا لا أستطيع رؤيته؟!

- ربما لأنك لم تقابله بعد.

فكرت لوتشيا أن الجلسة كادت تنتهي، وهذا الرجل سيعود إلى بلده، ولن تستطيع تكرار جلسة العودة للحياة السابقة فقالت:

- على كل حال تستطيع أن تعود مرة أخرى لحياة جون هوبكنز بنفسك، سأعلّمك الآن التنويم الذاتي، وفي كل مرة تنوِّم نفسك وتعود لاكتشاف تفاصيل أكثر في حياتك، وقد يكون لها دلالات في حياتك الحالية.

على شفا قصيدة

كان وما زال يعيش دائماً على شفا قصيدة، القصيدة قبل أن تكتب، كالقبلة قبل التصاق الشفتين، كلحظة الخلق والولادة، يعيش بحوافز حادة للحياة، وبمزاج شاعر غجري عبثي، لم يطق يوماً الزواج والارتباط والأطفال، ولذا يكرهه إخوته وبعض رجال العائلة، ويعتبرونه وغداً، أما نساء العائلة بمن فيهن المتزوجات فيعتبرنه وغداً وسيماً، يعرفنه جيداً لأنه عبث معهن جميعاً في طفولته ومراهقته، لكن لم يكنَّ أي مشاعر تجاههن، وهذا حدث مع بنات العائلة وغير بنات العائلة، كان يعرف جيداً جاذبيته الجنسية، وتأثيره على النساء:

- "سرسري ونسونجي".

هكذا كان يردد الرجال لزوجاتهم، اللواتي كنَّ يحتفظن بسر قديم مع سالم، يتذكرن تفاصيل علاقتهن به، فيتنهدن، ولكن لأنه عادة يتركهن بحسرتهن كنَّ يرددن:

- "صبح سرسري".

كان صيته يصل إلى كثير من النساء، فيتمنين علاقة معه، يتصلن به بحجج مختلفة، مثل توقيع على ديوانه الجديد، أو أخذ رأيه بقصيدة، حجج مختلفة، لكنه لا يحب المندلقات عليه، رغم أن ذلك يدغدغ غروره، لكن بعض الرجال الحاسدين يرددون:

- "ما يطوف حتى صخلة، كل محتركة حلال عنده".

لكنهم مبالغون ومضخمون، صحيح هو يعترف أنه عازب لعوب، لكنه يختار العلاقة الجنسية لأنه يحب ويحترم جسده:

- نقِّل فؤادك ما شئت من الهوي..فما الحب إلا للحبيب الأول.

وعندما سأله صديقه:

- "ووين الحب الأول الحين"؟

يرد سالم عليه وهو يوجه إصبعه باتجاه صدره:

- "كاهو.. جدامك.. أنا".

- "أنت حبيب نفسك"؟!

- "طبعاً منهو يستحق أحبه أكثر من نفسي"؟

- "هذه أنانية ونرجسية".

يردّ بعثية:

- "سمِّها ما شئت، أنا أبي استمتع بالحياة، أنا طير حرّ ليش أربط نفسي بوحدة طول عمري، وإلا حتى بوظيفة، أكره القيود".

* * *

هو بالطبع ليس لديه وظيفة، لديه استثمار معقول ورثه عن أبيه، ويكتب للصحافة الكويتية والعربية بشكل حرّFree lance، وكل ما يريده هو السفر إلى إيطاليا، وتأجير دراجة نارية للتّجوال في مدن وقرى توسكانيا، فمنذ سنوات اعتاد الذهاب إلى إيطاليا مرتين في العام على الأقل، بعد أن يبحث في الإنترنت عن الحفلات الموسيقية والأوبرات والأحداث الثقافية والفنية، والتجمعات للقراءات الشعرية وغيرها، ويحجز تذاكر الحضور، وفي هذه المرة تعرّف على لوتشيا وخاض تجربة العودة للحياة السابقة، بعد أن

أخبرته صديقة إيطالية عن لوتشيا المعالجة بالتنويم، وأنها شخصياً مرت بتجربة العودة إلى الحياة السابقة، فأثار هذا الموضوع فضوله، خاصة وأنه قرأ عنه أكثر من مرة في الكتب والإنترنت.

* * *

بعد الجلسة سألت لوتشيا سالم:

- كيف تشعر؟

أجاب وكأنه يصحو من غفوة:

- شعور جميل، وكأنه حلم.

لوتشيا:

- وكيف وجدت رحلتك؟

أجاب:

- مألوفة، أحسست بنفسي، ورأيت أشياء مألوفة.

- هل لديك علامة في بدنك مميزة ولدت بها؟

رفع رأسه محاولاً التذكر:

- لدي "وحمة" على كتفي الأيسر، ولدت بها.

- هل أستطيع رؤيتها؟

رفع سالم كمّ "التي شيرت"، وأراها الوحمة، لكنه سأل باستغراب:

- ما علاقة الوحمة في هذا الأمر؟

وضحت لوتشيا:

- الآثار البدنية في جسم الإنسان قد يكون لها دلالة في حياته السابقة.

ظل ينظر إليها بدهشة وحيرة من معنى كلامها، فوضّحت أكثر:

- قد تكون جرحاً أو أثر طلقة، نحن نأتي بعاداتنا وسلوكنا ومشاعرنا وحتى ندوبنا ومهاراتنا وهواياتنا من حيواتنا السابقة، مثلاً ماهو عملك أو اهتماماتك الآن.

ردّ مستكشفاً:

- أنا شاعر.

فابتسمت، اتسعت عيناه لهذا الاكتشاف، قال مدهوشاً:

- أنا شاعر عازب، وحياتي تشبه كثيراً حياة جون هوبكنز.

صمت قليلاً قبل أن يستطرد:

- لكن من هي هذه المرأة التي كانت تلح على ذاكرتي، لكنني لم أكن أستطيع رؤيتها بوضوح، وكأنني رأيتها في حلم ذات ليلة؟

قالت لوتشيا بثقة:

- نعم قابلتها وقد تكون حلمت بها، فالأحلام وسيلتنا للتواصل مع حياتنا السابقة أحياناً، وفي كثير من الأحيان نرى شخصاً أو مكاناً لأول مرة، ونكاد نقسم أننا نعرف هذا الشخص أو كنا في هذا المكان، وهذا يعني أن هذا الشخص في حياتنا الحالية كان معنا في حياتنا السابقة، هل تعلم أن الرئيس الأمريكي الأسبق كلينتون وزوجته هيلاري كانا أخوين في الحياة السابقة؟

بدهشة:

- صحيح؟!

- طبعاً، وهذا يتكرر مع كثير من الناس، فبعض الأزواج يكونون أزواجاً في حيوات متعددة.

كان الاكتشاف مذهلاً ومحيِّراً بالنسبة له:

- ولكن لماذا هذا الوجه الذي كان مهماً في حياتي السابقة غير واضح؟ ولماذا أشعر بألم عند تذكُّره.

بلغة الخبير قالت لوتشيا:

- أنت عدت في لحظة لم يقابل جون هوبكنز هذه المرأة بعد، أما ألمك فيجب أن تكتشف سببه بنفسك.

قال متلهفاً:

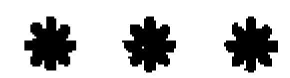
- أريد أن أعرف أكثر عن حياتي السابقة.

- تستطيع العودة واكتشاف تفاصيل أكثر، وفي كل مرة تعود تكون الرؤية أسهل وأوضح.. ولذا سأعلِّمك التنويم الذاتي وكيفية العودة إلى الحياة السابقة بنفسك.

* * *

انطلق بدراجته النارية من روما المدينة المتحف، إلى فلورنسا الجميلة، مختاراً الطرق الريفية والجبلية الضيقة، كي يستمتع بمناظر الطبيعة، ويمر بأكبر عدد ممكن من قرى توسكانيا، وحقولها الشاسعة، وهو مشبع بتجربة مذهلة، واكتشاف لذّاته بوضوح أكثر ووعي أكبر.

وهو يمر على الوديان والهضاب والبحيرات، وحقول العنب، ومصانع النبيذ، والغيوم المتناثرة التي ترافقه بجذل، كان على شفا قصيدة ترقص على شرفات قلبه، وكأنه على موعد غرام، كانت سماعات ال ipod تحت خوذته، يستمع إلى عبد الحليم حافظ، الذي يحب أغانيه منذ أن كان صغيراً، وحرص على لقائه والتحدث معه.



إزيّك يا باشا؟

كان في الرابعة عشر من عمره، في عام 1968م، بعد نكسة حزيران بعام، يرافق والده إلى القاهرة، لزيارة بعض ضباط الجيش الكويتي المرابط في سيناء، مساندة للجيش المصري، كانوا من أصدقاء طفولة والده، عندما سمع عن استشهاد أحدهم، وعلى كل حال استشهدوا جميعاً بعد بضعة أشهر.

كانوا يجلسون في ديوان السفير الكويتي عندما دخل عبد الحليم حافظ يرافقة الملحّن بليغ حمدي، وللمصادفة الجميلة جلس عبد الحليم حافظ بقربه، ووضع كفه على رأسه ولعب بشعره وهو يقول:

- "إزيّك يا باشا"؟

فرد باستحياء مشوب بفرجة كبيرة:

- "زين".

فبادر والده إلى القول:

- "سالم يحب أغانيك وايد؛ وعندي تسجيلات وهو يغني بتلوموني ليه وعمره سبع سنوات".

ضحك عبد الحليم سعيداً وسأله:

- "أنت تحب المزّيكة؟ أنا أحب اللي يحب المزّيكة".

هز سالم رأسه بالايجاب، فقال بليغ حمدي:

- "خلاص بكره أجيب لك عود كويس أوِي".

فقال سالم بصوت منخفض:

- "أبي كمنجة".

فقرب عبد الحليم أذنه من فم سالم:

- "كـ إيه"؟

فوضح السفير:

- "آلة الكمان".

ابتسم عبدالحليم قائلاً:

- "خلاص ياسيدي، نجيب لك كمان وعود".

قال سالم:

- "ما أبي عود".

لكن عبد الحليم لا يعلم أن "سالم" دخل شقته في عمارة السعوديين بالعجوزة، في عام 1963م، بعد أن رشا "المكوجي" بسندوتش فول، الذي كان يعود بملابس عبد الحليم إلى شقته.

كانت أسرته تصطاف في القاهرة، وسكنوا في نفس العمارة التي تعتبر فخمة في تلك الأيام، دخل الشقة ذات الستائر البنفسجية، قال المكوجي للشغالة:

- "عاوز يشوف شقة الأستاز".

تجول سالم في الشقة وقلبه يخفق بشدة من الفرح، ولمس الأشياء بأنامله، ويتذكر أنه شاهد صورة في برواز على طاولة، لكنه لا يتذكر الوجه.

لكن الحصول على صورة لعبد الحليم موقَّعة باسمه، استغرق تحايلاً ورجاءً طويلين لسائقه، الذي رقّ قلبه في النهاية لإلحاح الصبي، وأحضر له صورة لعبد الحليم موقَّعة باسمه، مزقها أخوه الغيور في يوم ما، الذي كلما يُصاب بالغَيرة يدمر أعز ما عند أخيه سالم، وبكى سالم طويلاً لفقد الصورة والاهداء الغالي.

لكنه ظل ينتظر عبد الحليم كل ليلة عند باب العمارة، حيث عرف موعد خروجه مع شخصين أو أكثر، وعندما يمر عبد الحليم كان سالم يصفق طويلاً بيديه الصغيرتين، عبد الحليم لم يكن يعلم ذلك.

Salve[2]

كان على بركة السباحة في فندقه الأثير بوسكولو Boscolo، الذي يبعد عشرين دقيقة عن فلورنسا، تحيط به الهضاب التوسكانية، يحب هذا الفندق ويسكن به كل عام لعدة أسباب، لأنه فيلاّ بنيت قبل أربعمئة عام، ولأنه في الريف وقريب من فلورنسا وبقية المدن في نفس الوقت.

كان مستغرقاً في حديث ودّي مع جيوفانا الإيطالية، تعرّف إليها في زيارته لروما العام الماضي، واستلطفا بعضهما، كما رأى كلٌّ منهما في الآخر صيداً لطيفاً، وعلاقة ممتعة، وفجأة انتبه لفتاة سمراء بشعر أسود ناعم، خلعت إزاراً كانت تلفه حول خصرها فوق المايوه البكيني الأسود، واستلقت على الكرسي القريب منه، وفتحت كتاباً باللغة العربية دون أن تنتبه لسالم الذي شُدِه لرؤيتها.

---

(2) مرحباً باللغة الإيطالية.

شيء ما جعله يلتفت لحظة وصولها، لم يعد يسمع ما تقوله صديقته الإيطالية، وظل يلتفت مأخوذاً بهذه الفتاة العربية، التي قد تكون كويتية أو خليجية بملامحها، كان لونها الطبيعي أغمق من البيج وأفتح من البنّي، بل هي أقرب إلى البنّي، كانت صديقته تتحدث، ولكنه كان مشغولاً بهذا الكائن الجميل، وكأنها طائر حطَّ على نافذته فهام به، شيء يجبره على الالتفات إليها، كانت تستمع إلى شيء من جهاز الـ ipod، في جلستها المائلة كأنها آلهة إغريقية، أو نحتٌ جميلٌ لمايكل أنجلو، لم يكن جسدها مثالياً كجسد صديقته الإيطالية، كان لديها انتفاخ قليل في بطنها، وزوائد في خصريها عند حد المايوه، بالضبط كنموذج النساء في الأعمال الإغريقية والرومانية، حيث كانت مقاييس الجمال تختلف عن هذا العصر، إذ لابد أن تكون المرأة مملوءة ذات حوض عريض، فالنحافة عيب جمالي.

انتبهت صديقته إلى اهتمامه بهذه المرأة، وجرأته في التحديق بها فقالت:

- جميلة أليس كذلك؟

هز رأسه موافقاً وكأنه في غيبوبة، فشعرت الإيطالية بغيرة وإهانة من هذا العربي زير النساء، ولكي تبرِّد قليلاً من غيرتها قالت:

- سأنزل بركة السباحة.

ونهضت على الفور، لم يجبها سالم وظل ينظر إلى الفتاة بانجذاب أحسه في كل خلية من جسده، قال لنفسه:

- "غريب، مألوفة بشكل غير مألوف"!

وكأنه يعرفها من سنوات طويلة، فهل كانت معه أيام الدراسة الجامعية في القاهرة؟ لكنها تبدو أصغر من أن تكون زميلة دراسة، قد تكون من تلك الوجوه المألوفة التي يتكرر عبورها في حياتنا.

* * *

الوغد الوسيم

لكن ما سرّ هذا الانجذاب غير المألوف لديه، فالنساء اللواتي عبرن في حياته كن هن المبادرات، وإذا انجذب إلى إحداهن كان يعرف نهاية العلاقة منذ بدايتها، ولذا لم يغرق قطّ في رمال الحب المتحركة، بل يتعامل مع انجذابه كفقاعة جميلة لامعة، لابد من أن تنفجر وتتلاشى في لحظة ما، ولم يكن التعرف إلى امرأة جديدة هو السبب في انفجار الفقاعة السابقة، لم يكن نذلاً على الإطلاق، لكن يلعب السأم دوراً كبيراً في ترك العلاقة، رغم تعرُّضه لسخطهن:

- "أنت قاسٍ ومتبلد المشاعر، أنت نذل، جرحتني وقطعت العلاقة من دون سابق إنذار".

كان يرد متحملاً مسؤولية الجرح الذي سيندمل:

- "من البداية اتفقنا على عدم الارتباط، كنت واضح معاك".

ترد ودموعها تسيِّح المكياج الصارخ الذي طالما كرهه فيهن:

- "أنا شسوّي من غيرك؟ ما أقدر أعيش من غيرك".

يجيب ورنة سخرية في صوته:

- "عندك زوجك وعيالك اللي أهملتيهم، صدقيني راح تعيشين من غيري وتتعرفين على واحد ثاني بسرعة".

وبمحاولة يائسة:

- "بس أنا أحبَك ما أحب زوجي".

يضحك قبل أن يقول:

- "أنا ما أحبِّك، وصدقيني راح تحبين بعد وبعد، أقول لك منو تكلمين غيري؟ زميلك اللي بالدوام معاك".

بهذه القسوة والصراحة الجارحة، كان يتخلص من العلاقات النسوية أحياناً، واللواتي يعلم أن لديهن علاقات مع رجال كاحتياط، يعتقدن أنها سرية، كن يكرهن هذا الوغد الوسيم، كل النساء طارئات بالنسبة له، أما إذا اكتشف أن إحداهن تحبه حباً حقيقياً، كان ينهي العلاقة بسرعة اكتشاف الشعور، لم يكن نذلاً على الإطلاق، ولكن يصعب فهم منطقه عند الآخرين، وقد اعتاد عدم الفهم هذا، فتوقف عن الشرح والإقناع.

لم يكن يبحث عن النساء بشغف، كما يفعل بعض الرجال أو كما تفعل بعض النساء، لكنه كان يعرف أن العلاقات ستأتي من تلقاء نفسها، ويمقت بشدة نساء الليل، أو اللواتي يأخذن مقابل، سواء هدايا أم نقوداً أم خدمات وسفرات، كان يحترم جسده، ولا يمنحه لأي كان، لم يكرر خبرة المواخير كأقرانه الذين ربما ما زالوا يؤمّونها في مدن الدنيا، هو لا يُقْدِم على ممارسة جنسية فجة، يكره رائحة المواخير والمومسات، ففي سنّ الخامسة عشرة من عمره، اتفق مع أصدقائه أن يذهبوا إلى ماخور صغير في بحمدون المحطة بلبنان، ولما دخل انقبض قلبه وشعر بخوف، واختار كل واحد من أصدقائه فتاة، وتبقت له واحدة تدعى ميرنا، لم يكن ماخوراً بمعنى الكلمة، ولكنها يفترض أن تكون جلسات "أنجشيه" أي رفقة ومؤانسة على شراب، أو ما يسميه العرب النديم، طلب زجاجة بيرة، وطلبت ميرنا شمبانيا، أقرفته رائحة ميرنا، رائحة المكياج والعطر الرخيص القوي، وبدأت خطة التحرش، على اعتبار أن صاحب الحانة لا يعلم، لكنه بالتأكيد متواطئ، لكي تزيد طلبات الشمبانيا على

حساب سالم، حيث إن ثمنها غالٍ، دنت ميرنا منه ووضعت يدها على فخذه، لكنه لم يحرك ساكنا، وازداد شعوره بالغثيان، أراد الخروج والهرب، لكنه خشي استهزاء أصدقائه، لم تجد ميرنا منه تجاوباً، فانزوت تشرب من كأسها، لتطلب غيره، وحتى يلطِّف الجو قال لها:

- "في حياتي ما ذقت الشمبانيا، تعطيني أذوق"؟

لكنها رفضت بشدة قائلة:

- "لا لا شو بدك بالشمبانيا"؟

وأبعدت الكأس عنه، فشك في الأمر، وانتظر غفلتها وتناول الكأس وجرع منها، فإذا به مشروب السفن أب الغازي، كان صاحب الحانة يأخذ منه ثمن كاسات السفن أب بسعر الشمبانيا، لكن حتى يتغاضى عن هذا الخداع، هجمت ميرنا على شفتيه وقبّلته، وفي هذه اللحظة استفرغ ما في معدته على صدرها العاري، وهرب بنفس اللحظة منطلقاً بسرعة خارج الحانة، وهو يسمع صوت ميرنا تشتمه:

- "الله يقصف عمرك".

ومن يومها لم تطأ قدماه ماخوراً، ولم يكلم مومساً في حياته، حتى المتخفيات منهن، فمرة كان على ناصية شارع في نيويورك ينادي على تاكسي، فسمع صوتاً نسائياً خلفه يقول:

- هل لديك ولاّعة؟

وعندما التفت وجد فتاة بملابس محتشمة، لكن رائحتها رائحة مومس، فابتسم لفنون الخداع، وأعطاها ظهره.

يكره المومسات، لكنه يحب النساء، على شرط الدخول والخروج بسلاسة من العلاقة، وبأقل قدر من الخسائر، وكانت النساء لغيظهن منه أحياناً، يطلقن حوله الإشاعات، أو يهددنه بإبلاغ أزواجهن أو إخوتهن، مدّعيات أنه تحرّش بهن أو يلاحقهن، لكنه كان يعرف أن الغيظ والغيرة، يقودان إلى أشياء غير متوقعة، وقد تكون خطرة ومجحفة وظالمة، كالفجور في المخاصمة.

الغريب أنه لم يجمع بين علاقتين بتاتاً، لم يكن نذلاً على الإطلاق، وإن ادّعين أنه وغد، فهو وغد وسيم.

* * *

يتذكر في أول سنة له في جامعة حلوان في القاهرة، أن زميلاته كنّ يتقربن منه، وفي يوم دخل قاعة المحاضرات متأخراً، فوقف محتاراً أين يجلس، وظل يبحث بعينيه عن مكان للجلوس، فأخذت زميلاته اللواتي لا يعرفهن يتصايحن:

- "تعال اقعد هنا جنبي ياسالم".

- "لأ لأ هنا جنبي أنا".

وبعضهن كن يَشِرْن له على أحضانهن، بداع التحرش والمزاح، فاحتقن وجهه من الخجل، ومن جرأتهن، لكن الدكتور صرخ بصوت أخافه:

- "جرى إيه يا شرموطة منك ليها".

ثم التفت إلى طالب يجلس في الأمام قائلاً:

- "قوم يا مرقص خلّي سالم يقعد مكانك، وشوف لك مكان تاني".

وفي مرة كان جالساً على درج الجامعة يستدفئ بالشمس، فجلست بجانبه زميلة يذكر أن اسمها كان ناهد، تجاهلها لأنها تطارده من مكان إلى مكان، فإذا جلس في الكافتيريا، جلست إلى الطاولة المقابلة، وهو يقرف من الاندلاق، وفجأة سألته:

- "أنت عمرك ما حبيت يا سالم"؟

فأجاب بحدة:

- "لأ ومش ناوي أحب".

كانت له جاذبية لا تقاوم، كجاذبية رحيق الورد للنحل، كل طالبات الجامعة يعرفنه ولا يعرفهن، ويحاولن التقرب منه بطرق مختلفة، وإذا مرّ ناحيتهن أطلقن أصوات تنهُّد عالية، وعضضن على شفاههنَّ السفلى، وأخبرته زميلة أن البنات كن يقسمن الشباب درجات، بعضهم فقط آهة مما يعني "وسيم"، وبعضهم عضّة شفاه، مما يعني "مرغوب به" جنسياً، أما هو فآهة وعضّة شفاه، مما يعني أنه وسيم جداً ومرغوب جداً، وهي أعلى درجة تعطيها البنات لشاب، وإذا عضّت فتاة شفتها وأنتما تتحدثان، فهذا يعني أن لا مانع لديها من ممارسة الجنس معك.

عندما أحضر معه سيارة في السنة الجامعية الثانية، انتشر الخبر بينهن:

- "سالم جاب عربية خمسة فتيس".

وعندما كان يخرج من الكلية يجدهن مستلقيات على "كبوت" سيارته، فيقول بأدب:

- "ممكن لو سمحتم".

فيتظاهرن بعدم المعرفة:

- "عربيتك دي"؟

فيبتسم ابتسامته الجانبية التي تسحرهن، فيضعن أكفهن على أفواههن وكأنهن يمنعن الشهقة من الخروج، وهو يعرف جيداً تأثيره على النساء، ويسعد بذلك.

كان وسيماً مرغوباً، لكنه لم يكن نذلاً على الإطلاق.

* * *

طلبت من نادل البركة كأساً من النبيذ الأبيض، فابتسم سالم، رغم أنه يعرف أنها عربية من الكتاب الذي تقرأه، إلا أنه بادرها بالإيطالية:

- salve.

ردّت عليه بالإنجليزية:

- sorry I don't speak Italian[3]

في هذه اللحظة وعند التفاتها، لاحظ وشماً أخضر على ذراعها الأيسر، على شكل زخارف.

---

(3) آسفة أنا لا أتحدث الإيطالية

شيخة

استغربت شيخة تحديق هذا الرجل الخمسيني بها، وبهذه الطريقة، لكن عندما انتهزت فرصة لإلقاء نظرة عليه من تحت نظاراتها الشمسية الكبيرة، ومن دون أن ينتبه، شعرت بأنها تعرف هذا الرجل، أو أنه يشبه شخصاً تعرفه، ربما قابلته في إحدى المناسبات، أو مهرجانات السينما التوثيقية التي تشارك فيها.

بوجهه الحليق، وشعره الأبيض، يبدو كممثل سينمائي، شعرت باهتمام وأعملت تفكيرها، ولما لم تتوصل لنتيجة، ظلت ترمقه بين الوقت والآخر، ثم تنقل اهتمامها لكتابها تارة، وللأجساد الممدة على الكراسي تارةً أخرى، وهي تلمع بسبب زيوت "تدكين" الجلد أو oil tan، بينما هي سمارها طبيعي، ورثته عن أجدادها الذين لوّحتهم شمس الخليج.

شيخة في الخامسة والثلاثين من عمرها، عزبة لا تؤمن بالزواج، لكن لا مانع لديها من إقامة علاقات، هي تؤمن بأنها يجب أن تكون free، ولذا هي غير عذراء منذ الدراسة الثانوية، درست حتى الثانوية في المدارس الأمريكية، ثم درست الإخراج السينمائي في الولايات المتحدة الأمريكية، وتتمثل كثيراً بأقرانها في المجتمع الأمريكي، وما هذا الوشم على زندها، ووشم آخر سيكتشف لاحقاً، إلا تقليد لجيلها الأمريكي، وكل صديقاتها الكويتيات، وزميلات الدراسة يضعن أوشاماً في أماكن مختلفة على أجسادهن، ويعلّقن "خزامات" أو حلقات في أنوفهن، وفي أماكن أخرى.

هي تؤمن بأن المجتمع الكويتي، والمجتمعات العربية، متخلِّفة ومحافظة ومقيِّدة للحريات، وتكره الكثير من الرجال الكويتيين، وتعتبرهن متخلفين مقرفين تافهين، لكنها تقيم علاقات جنسية عابرة مع عرب وأجانب، حتى إنها مارست الجنس مع نساء، رغم أنها تفضّل الرجال، هي عبدة لجسدها، تريد المتعة خالصة، وإذا لم تجد من يمتِّعها، فعلت ذلك بنفسها، نهمة للجنس، شبقة، وتقبل

تقريباً كل دعوة له، خاصة من عرب وأجانب، لا تعتبر أن ذلك خطأً، وليس لديها رادع ديني، فهي بعيدة كل البعد عن الدين، وتعتقد أن الأديان وجدت للسيطرة على الشعوب، ولا تعتبر نفسها عاهرة، فهي تكره الهدايا، وتحتقر العاهرات، وتعتبر العهر شيئاً غير أخلاقي، لكنها تتعاطف معهن، كما تتعاطف مع الشاذّات والشاذّين جنسياً، وتعتبر أن ممارسة الشذوذ الجنسي حقٌّ إنساني، وحرية شخصية، فهو موجود منذ فجر التاريخ، وفي كل المجتمعات والحضارات، اليونانية والرومانية والفرعونية والفارسية وفي جزيرة العرب كذلك، وسيظل موجوداً إلى الأبد، لكن النفاق الاجتماعي سيظل أيضاً.

حلمت بالإخراج السينمائي منذ كانت يافعة، ورغم معارضة أهلها لهذا المجال، الذي لاتوجد له سوق أو وظيفة بالكويت، إلا أنها أصرت، وعندما عادت تشاركت مع مجموعة من صديقاتها وبمساعدة والدها، في تأسيس مؤسسة للإنتاج الإعلامي، كانت تصور تلفزيونياً وسينمائياً، وتخرج وتُنتج بنفسها، لكن عشقها الحقيقي هو تصوير وإخراج الأفلام الوثائقية والسينمائية القصيرة، وتشارك فيها بالمهرجانات السينمائية في العالم.

عندما كانت صغيرة، سألها والدها ماذا تريد هدية للنجاح، فطلبت كاميرا فيديو، ومن يومها بدأت بالتصوير الفني، والتقطيع والإخراج، وإضافة موسيقى تصويرية.

كان والدها يحبها لدرجة أنه دائماً ينهر والدتها، عندما كانت تنتقدها على شكلها أو على الوشم وحلقات piercing المغروسة في جسدها ولسانها، أو تنتقد رفضها للزواج، كان يصرخ بزوجته:

- "مالك شغل فيها، هي حرّة، وتعرف مصلحتها، بعدين لا تقارنين جيلك بهالجيل".

مع ذلك فأختها الصغرى تحجبت بقناعتها، وتزوجت، لكن شيخة ظلت عنيدة ومتمردة كما تردد والدتها وخالاتها، وهي لا تهتم للنميمة والوشوشات.

ونجح عملها التجاري الصغير، وأصبح يدرّ عليها دخلاً جيداً، أعطاها فرصة للاستقلال، والسكن في شقة خارج منزل العائلة، بعد صراع بين الأب الموافق والأم الرافضة، كانت شيخة منزعجة من هذا التدخُّل في خصوصياتها، كانت ساخطة على المجتمع، وعلى والدتها تحديداً والتي كانت تردد:

- "شيقولون الناس"؟

كانت ترد:

- "بالطقاق اللي يطق الناس، ما يهموني، الناس ما يرضيهم شي".

وبهذا التمرد والعناد، كانت تأخذ وتفعل ما تريد.

* * *

- where are you from?[4]

أجابت:

- I am from Kuwait[5]، and you?

أجاب مبتسماً:

- I am from Kuwait.

قالت بابتسامة عريضة رافعةً حاجبيها:

- "صج؟! مو مبين عليك".

ضحك قبل أن يقول:

---

(4) من اين أنت؟

(5) من الكويت.

- "ليش؟ لأن ما بيدي مسباح"؟

ضحكة مشتركة، تخللها صوت "طشة" الماء، عندما قفز أحدهم في البركة، مر النادل بقربهما فطلب سالم نبيذاً أحمر، سألته:

- "سياحة وإلا شغل"؟

أجاب وهو يدلّك كتفه الأيسر:

- "سياحة".

استدارت "بكلها" ناحيته، فلاحظ حلقة مغروسة بسرتها، لكنه لم يهتم للأمر، ماله ومال الناس، أحرار بما يفعلون، لكنه بالتأكيد لن يفعلها، قد يلبس سلسلة من الذهب أو الجلد في رقبته، لكنه بالتأكيد لن يغرس شيئاً في جسده، ويكره منظر هذه الحلقات المغروسة خاصة في جسد المرأة، فهذا يفقدها الرقة والأنوثة التي طالما عشقهما في المرأة، ولا يعرف لماذا انتشرت هذه الظاهرة بين الشباب، وما مغزاها، فجيله عرف السلاسل كزينة في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، لكنه بالتأكيد لن يغرس شيئاً في جسده الذي يحبه ويعتني به بالرياضة والسباحة، إضافة إلى لعبة "التاي تشي" الصينية، كما

يعتني بعقله بلعبة "السودوكو"، وقراءة وكتابة الشعر، إذ قرأ في مكان ما، أن من يقرأ ويكتب، يظل محتفظاً بذاكرة يقظة، ثم اكتشف لعبة "السودوكو" التي يقال إن ممارستها تمنع من الإصابة بالخرف أو الزهايمر، وهي تشبه الكلمات المتقاطعة، لكنها تستخدم الأرقام، لكنه ليس مدمناً على "السودوكو" مثل البعض.

كانت ضجة بركة السباحة منعشة، رشف من كأسه قبل أن يسألها:

- "وأنت شتسوين هني"؟

أجابت وهي ممسكة بكأس النبيذ:

- "أنا مشاركة بمهرجان الأفلام الوثائقية في فلورنسا".

سألها:

- "أنت سينمائية وإلا ممثلة وإلا.."؟

قاطعته:

- "أنا مخرجة، بس أصور أفلامي بنفسي".

هز رأسه معجباً:

- "أوه، شي حلو، فنانة إذاً".

ردت بتواضع غير مصطنع:

- "ما وصلت فنانة، لكني أحب السينما وايد".

- "أنا بعد أحب الأفلام الجيدة، شفت كل أفلام "فلليني"، وهل فزت بجائزة في المهرجانات"؟

قالت بنفس التواضع الصادق:

- "لا والله ما فزت، لكني حصلت على مراكز متقدمة".

ظل يهز رأسه بإعجاب:

- "ممتاز.. وشنو أكثر فيلم حبيتيه في حياتك".

ردت بلا تردد:

- "ذهب مع الريح.. وأنت"؟

رد بلا تردد:

- "كازابلانكا".

رفعت خصلة شعر من على جبينها وهي تسأله:

- "وأنت شنو تشتغل"؟

ضحك قائلاً:

- "أنا عاطل عن العمل، بس يتبعني الغاوون".

لم تفهم، سألته مقطبة الجبين:

- "شنهو"؟

ابتسم موضحاً:

- "أنا يا سيدتي شاعر، وأكتب للصحف مقالات وتحقيقات صحفية بالقطعة، وعندي استثمار صغير، أعيش وأسافر منه، وأنا أموت على السفر، وخاصة إيطاليا، ألف عليها كلها بسيكل".

- "واو تسوق سيكل في إيطاليا"؟

- "حتى في الكويت، أنا عضو في نادي "هارلي ديفيدسون" للدرّاجات النارية".

- "وعادة تسافر بروحك وإلا مع زوجتك وعيالك".

سألته هذا السؤال، وهي متيقنة أنه لا بد وأن يكون متزوجاً في هذه السن، لكن إجابته أدهشتها، فكلما أوغلت بالحديث معه، أحست باهتمام أكبر له، وليس مجرد دردشة اجتماعية فقط، كما أنه يبدو منفتحاً، ولم يحكم عليها للبسها المايوه، أو لشربها وهذا أراحها.

قدم لها سيجارة قبل أن يجيب، ولكنها رفضتها بأدب:

- "شكراً".

- "أنا ياستي مو متزوج، عازب وبفخر".

- "ليش؟ رغم.."

- "عمري كبير؟ هذا مبدإي في الدنيا، أنا ضد الزواج وضد كل قيد، العمر قصير وأبي أستمتع فيه بدون مناكفة زوجة وغثي عيال وأنت متزوجة وإلا.."

- "أنا من أتباع مبدإك، ما أحب الارتباط، أحب أكون free".

- "يمكن في يوم من الأيام يجيك النصيب".

- "لا إنشاء الله، ما أبي هالنصيب، جذيه مرتاحه".

- "وأهلك".؟

- "محد له شغل فيني، محد يقدر يجبرني على شي ما أبيه".

كانت جيوفانا ترقبهما وهما مستغرقان بالحديث والضحك بصوت عال، فأحست بغّيرة، تعرفه منذ العام الماضي، وها هو يتركها ويهتم بأخرى، خرجت من البركة واتجهت ناحيتهما، إلتقطت الفوطة الكبيرة ونشفت جسدها، انتبه سالم لها:

ـ Hi كيف كان الماء؟

ردت بملامح لا يبدو عليها الرضى، لكن سالم كان معتاداً على هذا الأمر:

- ok.

ثم تدارك:

- هذه جيوفانا، جيوفانا هذه. ..

فبادرت شيخة:

- شيخة.

تبادلتا الابتسام دون حماس أو ودّ، وخاصة من جانب جيوفانا:

- Hi.. Hi.

ثم استلقت جيوفانا على الكرسي، ووضعت نظارتها الشمسية على عينيها، بينما أكمل سالم وشيخة حديثهما، سألته:

- "شنهو وضعها؟ "Girl friend؟[6]

- "لا، مجرد عابرة مثل كل العابرات".

- "أوه، أنت خطير، لكن تبي الصج، زين تسوي،

---

(6) حبيبة.

شحقه عوار الراس".

قدم لها سيجارة، رفضتها، فسألها السؤال التقليدي:

- "ما تدخنين"؟

- "أدخن بس شيشة، بس وين الواحد يلاقي هني".

- "صدقيني، العرب نشروا الشيشة في كل مكان، أنا ما أطيق ريحتها".

- "أتسلى أنا وصديقاتي في القهوة".

لم تطق جيوفانا هذا الإهمال، نهضت وقالت لسالم:

- سأذهب للغرفة لآخذ دشاً.

التفت سالم إليها وقال على الفور:

- ok.

أحست شيخة بغّيرة جيوفانا منها، فقالت لسالم:

- "آسفة يمكن سببت احراج لك".

عرف سالم ما تقصد:

- "ولا يهمك، أنا مو ملكها، ما عليك منها خلّي نكمل سوالفنا، صار لنا ساعة نتكلم وما كنت أعرف اسمك".

ثم مد يده مصافحاً:

- "أنا سالم".

- "تشرفنا يا سالم..لكن قول لي هل تقابلنا قبل هالمرة؟ عندي شعور قوي بأني أعرفك من زمان، وايد مألوف".

وافقها سالم بصدق وعفوية فورية:

- "من أول ما شفتك حسيت بنفس الإحساس، ما أقصد الوجه بس، شي مثل اليقين اللي ما فيه أدنى شك، أني أعرفك زين، ويمكن قضيت معاك وقت طويل، ويمكن أعرفك من حياة سابقة".

ضحكت قائلة:

- "يمكن، ولو أني ما أؤمن بهالأمور، وأخاف منها".

لم يجادلها، ولم يخبرها عن تجربته، وبدلاً من ذلك سألها:

- "ليش تحطين piercing في سرتك، عفواً على التدخل في خصوصياتك، لكني وايد أشوف شباب وشابات يسوون جذيه، ليش للزينة"؟

قالت بثقة:

- "لا عادي، جزء منها زينة طبعاً، بالمناسبة عندي وحدة في لساني".

ثم مدت لسانها، فبان قرط مغروس بلسانها، فامتعض من المنظر وسأل:

- "أوف، ما يؤلمك"؟

- "هني المتعة".

- "متعة؟! وشنهو المتعة فيها"؟

- "طبعاً، أكو لذة في الألم".

- "لذة في الألم؟! هذه يسمّونها مازوكية".

- "يسمّونها مثل ما يسمّونها، هذا شي واقع، عيل لو تشوف الأماكن اللي يسوّون فيها piercing، في كل الأماكن الحساسة، بس عشان يحسون بهالمتعة، حتى أنا أفكر أضيف piercing في بعض أماكن جسمي".

- "وبعدين شلون استحملتي ألم الوشم، وشنهو يعني"؟

- "كل شكل له معنى، مثلاً إذا شفت tattoo على شكل وردة روز، فاعرف أن هذا الشخص انتحاري، وخاصة إذا كان صينيّاً، أكو أشكال وايد وكل شكل يمثل

شي، بس هذا شي موجود في التاريخ، وكل قبيلة لها وشمها الخاص، بعضهم يكتبون أسم حبايبهم".

- "وإذا تركته حبيبته أو تركها حبيبها، شيسوون"؟

مطّت شفتيها ورفعت كتفيها، وفي هذه اللحظة مُرّ شاب مفتول العضلات، فظلت شيخة تحدق به وهي ترشف من كأسها، شعر سالم بقرصة في قلبه، فقال لها:

- "شرايك تتعشين معانا اليوم".

ابتسمت وهي تقول:

- I would love to[7].

ثم عادت تحدّق بالشاب.

---

(7) أحب ذلك.

تفتُّق

عندما استلقى على السرير بعد يوم استثنائي، كان يريد هدوءًا داخلياً لتفسير مشاعره، كانت الصور الذهنية تزدحم، وتمر سريعاً على شكل إضاءات، ثم تختفي ليظهر غيرها، صور لوجه شيخة وحديثهما، وصور كأنها ذكريات لا يعلم متى حدثت، وكأنها خيال يقترب من الحقيقة، صور لفتاة وحقول وخيول، وهناك مشاعر مرتبطة بهذه الصور، يصعب تفسيرها، يختلط السارّ بالمؤلم بالمحايد، وكأن ذاكرته تتفتق بغير انتظام.

لم يختبر هذا الأمر في حياته، كان كمن حصّن نفسه من الاقتراب الشعوري، والآن وهنت قوّته، وبدأ يصاب بهذا المرض، بدأ يشعر بالضعف تجاه هذه الخبرة الجديدة، فهل هو عامل السن؟ أم هذه الصور والمشاعر المبهمة؟ والتي تذكّر أنها تكررت في أحلامه، فهو دائماً يحلم في نفس البيت، ويعرف أثاث وألوان الغرف فيه،

وتذكّر كذلك أنه في أحلامه، كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة، لكن أيضاً يحدث ذلك مع كثير من الناس.

كان يسمع ضحكات وأحاديث وأصوات معالق، وكان هناك وجه نسائي يلحّ عليه، يشير إليه بالاقتراب، لكنه لا يستطيع الرؤية بوضوح، وكأن المرأة شبحٌ أو طيفٌ في هالة من البهاء والنور.

وفي هذه اللحظة بالذات شعر بيد على صدره، وأنفاس على رقبته، فظن أن الطيف لمسه، لكنه انتبه من غفوته، فإذا بجيوفانا تقبّله، فدفعها برفق قائلاً:

- ليس الآن جيوفانا، فأنا متعب.

حركتها بددت انسياب صوره، كاحتراق الفيلم على الشاشة في لحظة اندماج الجمهور في دور السينما القديمة.

* * *

الخروج عن خشبة المسرح

انقلبت جيوفانا على جنبها، وسالت دمعة على أنفها، علمت أنها خسرته منذ رأت استغراقه بكلّه، مع بنت بلده التي تصغرها على الأقل بخمس سنوات، كانت تشعر بإهانة وجرح أنثوي أثناء العشاء، كانت مهملة وكأنها غير موجودة، أو كأنها كرسي إضافي، يخلو من المشاعر، كانا يتكلمان بالعربية، إلا عندما ينتبه سالم مستدركاً:

- عفواً جيوفانا، كنا نتحدث عن موضوع..

كانت ابتسامتها ترتسم بصعوبة، كان واضحاً أنها ابتسامة المقهور، لم تستطع إكمال طبقها، ولما سألها سالم:

- لم تأكلي جيوفانا.

هزت رأسها وقالت بصوت منخفض:

- ليس لدي شهية.

- ما بك؟ هل تشعرين بمغص؟

هزت رأسها بالنفي، لم تستطع التحدث وغصّة في حلقها، لكنها غالبت دموعها أمام هذه المرأة الكويتية، ذات الأقراط في سرّتها، كي لا تشعرها بانهزامها، وظلت ترمقها خفية، بينما كانت شيخة مستغرقة بالحديث مع صديقها، الذي تكنّ له مشاعر خاصة، وكانت تصارحه بحبّها له، رغم الاتفاق على أن العلاقة تبقى في إطار الصداقة، فهو إنسان، يحب، مميز وجذاب ورومانسي، رغم أنه قليل التعبير عن مشاعر الحب، صادق في كلمات الإعجاب، لكنه يضع مسافة بينه وبينها، وكأنه يخشى الذوبان في الحميمية، فيه صدق نبيل، على ألا تكسر عهوده ونذوره كما يكرر لها دائماً:

- أنا لا أصلح للحب، ولا يصلح الحب لي، من يقبل بهذا سأمنحه الكثير، ومن يحاول أن يخونني عهودي، ينتهِ فوراً من حياتي.

* * *

تلقّت في العام الماضي إيميلاً على موقعها الإلكتروني، من شخص كويتي يطلب أن يستأجرها كدليل أو مرافق سياحي خاص، فقد أنشأت هذا الموقع للخدمات السياحية، سواء كانت خاصة أو لمجموعات سياحية، لقاء مبلغ معيَّن، وقد قامت بهذا الدور على مدار السنة، ولمختلف الجنسيات، وخاصة أنها تتحدث بثلاث لغات، الإنجليزية، والإسبانية، والفرنسية إضافة إلى الإيطالية، وهذا درَّ عليها دخلاً جيداً، أملاً بأن تؤسس في المستقبل شركة سياحية خاصة بها، لكن قليلاً من الأشخاص قادرون على تحمُّل نفقات الدليل الخاص.

استقبلته في مطار ليوناردو دافنشي، وقضت شهراً كاملاً معه، وأحبت فكرة التنقُّل في أرجاء إيطاليا على دراجة نارية، استمتعت برفقته، واقتربت منه وأعجبت بشخصيته الجذابة، وضحكته التي تخرج من القلب، والتي أخافتها في المرة الأولى، لكنها اكتشفت تأثيرها الإيجابي عليها، وعندما شعرت بالإعجاب ممزوجاً بشعور الأمان، اقتربت أكثر، فاكتشفت تأثير لمسته الرقيقة، ونظراته

الساحرة، التي اعتبرتها جريئة ماجنة في البداية، لكنها كلما اقتربت أكثر، اكتشفت شخصية لم تمرَّ عليها طوال حياتها، واعتبرت أن لديه قوة أو سلطة Power لا تقاوم، إستطاع هذا الرجل أن يجعل فراشات بطنها تتحرك، كلما تذكرته أو رأته، كانت تشعر بهذا الشعور بحضوره وغيابه.

وعندما قبّلها أول مرة، على شرفة مايكل أنجلو بفلورنسا لحظة غروب الشمس، غابت عن الدنيا وعن اللحظة، داخت وارتفع وجيب قلبها، واحمر خداها، وسخنت أذنيها، لم تكن كالقبلات السابقة لها، ولا تعلم أسبب ذلك يعود لمهارته أم لشعورها تجاهه، وعندما سمح لها بأن تسند رأسها إلى صدره، ظلت تحضنه فترة طويلة، لم تكن تريدها أن تنتهي، سمعت خلالها دقات قلبه، وفي تلك الليلة غابا بطقوس الرائحة والمذاق، وارتعاش الروح المبتلّة، بمطر فعل الحب، قبل أن تهدأ عاصفة الغيبوبة، وتنتهي بالآه.

في تلك الليلة شرح لها مبدأه في العلاقات، ودٌّ ثم يذهب كل إلى سبيله، هو لا يريد تعليق مشاعر أحد، أو

التلاعب بها، رغم أنها طمأنته، إلا أن ماحدث بينهما قد زاد أوار مشاعرها، وفي كل مرة كأنها أول مرة.

افتقدته عندما سافر، وظلا على اتصال عبر الهاتف، والرسائل الإلكترونية، وفي الواقع هي التي أخبرته عن لوتشيا وخبرة العودة للحياة السابقة، وأرسلت له رابط موقع لوتشيا الإلكتروني، وهي التي أخذته لها، وعندما وصل استقبلته في المطار وحضنته كحبيب، كانت فرحة برؤيته ثانية، كانت تعتزم أن تعترف له بحبها، تعترف أنها فكرت فيه كثيراً، ودرست مشاعرها جيداً، وتأكدت من حقيقتها وصدقها، فهي امرأة ناضجة، ولا مجال للوهم هنا، خاصة بعد تجربة زواجها في سنّ صغيرة، وطلاقها بعد بضع سنوات، تستطيع التفريق بين الإعجاب والحب، وفترة غياب سنة، كانت كافية لهذا الاختبار، لم يكن سالم تعويضاً، بل كان تدفقاً طبيعياً، كجدول ماء عذب، حتى لو لم تلتقه مرة أخرى.

ناقشت نفسها عدة مرات، أنه رجل غريب، يعيش في بقعة أخرى من العالم، وقد أعلن لها بوضوح وصدق، أنه

ليس في صدد الحب والاندماج في علاقة حميمية، وهذا يؤكد حقيقة مشاعرها، إذ ليس مهماً أن تقترن به أو تعيش معه، هي فقط شعرت بحاجة روحها له، حاجة روحية حقيقية، لا لبس ولا وهم بها.

عانت من زيف العلاقات لسنوات بعد طلاقها، ولم تمانع ببضع علاقات عابرة، لكنها كانت متيقنة، أن العلاقة الحقيقية آتية من تلقاء نفسها، وإلا فهي مكتفية بعملها وطموحاتها التي بدأت تجني حصادها.

معظم الرجال الذين مروا عليها، كانوا ذئاباً تبحث عن فرائس، ورغم أنها محافظة، لا تحب النوادي الليلية، التي تعتبر غابة وساحة صيد للجنسين، إلا أنها سئمت من بضع علاقات سطحية وتافهة، سئمت من كذب الرجال، كان أحدهم يذيع لها هيامه بالساعات، حبه الكبير وأرقه المنهك، وتفكيره بها طوال الساعات والدقائق والثواني، أخبرها أنه لا يستطيع العيش بدونها، وأنه على استعداد كي يقبّل قدميها كي تقبل به زوجاً، رغم أنها لم تشعر بصدق الكلمات الساخنة، لم تشعر بها في بدنها، إلا أنها

طلبت مهلة للتفكير وأثناء هذه المهلة، رأته يقبّل امرأة أخرى في إحدى "كافيهات" روما.

لم تجد صدقاً ونبلاً مثلما وجدت عند سالم، هذا الرجل القادم من بعيد، الذي أخبرها بصدق غير مباشر أنه لعوب، ولا نية له لارتباط، أحسّته وشعرت به، لم يكذب بشأن مشاعره، كان حنوناً دافئاً، تتغلغل كلماته بيسر النصل الحادّ في القلب، ليتبعه ألم وموت لذيذان، كألم تعذيب المؤمن لنفسه تكفيراً عن خطاياه، تتشرب روحها كلماته، كما تتشرب الأرض العطشى الندى، فتخضر زهواً ورواءً، عيناه وكلماته تنفذ إلى لجة جسدها، فتلون خلاياه بألوان قوس قزح، في اللحظة والسرمد.

ليس بيدها، هذا ما جناه على قلبها، تلك الجناية المقدسة، ولا تفسير لذلك غير الحب بصورته التي تختزل التكوين، من أصغر ذراته حتى لحظة الانفجار والاحتفاء الجميلين.

كانت قد قررت أن تعترف له بحبها، وليس مهماً أن يكون الزواج هو أصغر حلقات الهدف، وملاذ الاشتهاء،

كل مبتغاها صلة كصلة الشريان بالقلب، علاقة تغذيها برشفات حياة السنا والفرح، أياً كان شكل وجوده في حياتها، ولكن من حق الصدق أن يقال، واختارت هذا الفندق الذي يحبه، والذي قضت فيه أجمل أيام حياتها في العام الماضي، خاصة عندما انتقلت للسكن معه إلى غرفة 405 الأرضية، المطلة مباشرة على بركة السباحة، وهضاب توسكانيا الخضراء، وانتظرت اللحظة المناسبة، كي تقول ببساطة:

- أحبك.

ولكن هذه السيدة الكويتية، أتت وكأنها رسولة الحزن، لتجهض الحلم / اللحظة، قبل أن تولد، فعلى بركة السباحة، استطاعت إشعال شرارة غَيرتها، وهو شعور لم تعتده، شعور فيه من الألم والغضب ما يحرق بيوتاً بأكملها، وكان العشاء ضربة رنّحتها وحرقت جوفها، وكأنها تجرعت حامض الأسيد، والضربة القاصمة، عندما حاولت التودد إليه البارحة فصدّها، ونحر أملها الأخير بسيف داوود.

عرفت في هذه اللحظة، أنها خرجت عن خشبة المسرح نهائياً، ولن تعود إليه، كممثلة عجوز أدت الأدوار في شبابها، وصفق لها، وفي لحظة تم لفظها بفظاظة وقسوة، انتهى دورها وأصبحت من التاريخ.

لكنها لن تدخل في صراع نسوي، قد يزيد الأمر لظًى، ستتركه لها وستتركها له، قبل أن يستفحل حبه في قلبها كالخلايا السرطانية، وتصبح سدًى.

* * *

في الصباح، كان يتغرغر بمعقِّم الفم، عندما لاحظ أنها تضع ثيابها في حقيبتها الصغيرة، سألها متفاجئاً:

- ماذا تفعلين؟!

أجابت وهي تقابله بظهرها:

- تلقيت اتصالاً من روما، والدتي مريضة جداً، ويجب أن ألحق موعد القطار الصباحي.

سأل وهو مازال متفاجئاً:

- والدتك؟!

لمسها على كتفها، فالتفتت ناحيته وقبّلته قبلة سريعة وهي تقول مقرّبة إصبعيها الإبهام والخنصر من أذنيها على شكل هاتف:

- سأتصل بك.

استدارت وغادرت بسرعة، وهي تودّعه بـ:

- ciao[8].

لاحظ حلقتين سوداوين حول عينيها.

---

(8) تستخدم للسلام والوداع بالإيطالية.

جون هوبكنز

قال لنفسه وهو يحتسي قهوته الصباحية ويدخن:

- لست بحاجة لها، ستنساني قريباً.

صحيح أنه شعر بقليل من الفقد، لكن استحواذ شيخة على الحيز الأكبر من ذهنه، جعل أمر رحيل جيوفانا عادياً، رغم أنها كانت إنسانة شفافة جميلة الروح، فيها صدق وبراءة إنسانية، قلّما وجدت بين النساء اللواتي عرفهن في حياته، وربما لم يسعَ للتعرف على هذا النوع خشية السقوط، لكنها كانت حكيمة بانسحابها، وهذا يضيف لها ميزة نبيلة، إضافة إلى ميزاتها الأخرى، وستظل إحدى ذكرياته وعلاقاته الجميلة، التي لا تحمل ضغائن.

لكن هذه المرأة الجديدة، التي ظلت تراوده في أحلامه الليلة الفائتة، حتى عندما فتح عينيه صباحاً، كانت هناك في ذهنه، وكأنه لم ينم، وكأنها استمرار لأحلامه، تلك الأحلام التي لم تكن سارّة ولم تكن كوابيس، فقط

كانت مزعجة مربكة لحالة السلام في عقله وبدنه، هناك تغيُّر مفاجئ يعتوره، أصبح يُحسّ وجيب قلبه، وسرعة تنفسه حتى وهو يتذكرها ويتذكر حديثها وصوتها وابتساماتها، كل ذلك حدث في يوم واحد، ثم لماذا اختلطت صور الحياة الماضية بصورها؟ هل لها علاقة بتلك الحياة؟ وهل هذا ما يفسر شعوره الغامض تجاهها؟

لديه الآن دافع أكبر للرجوع لحياته السابقة، فعزم على القيام بجلسة تنويم ذاتي والعودة من خلالها إلى حياة جون هوبكنز، رغم أنه لم يكن على يقين بحقيقة الأمر، وقد تكون هذه الجلسة اختباراً للحقيقة.

وضع بطاقة "ممنوع الإزعاج" على باب غرفته، وجلس على كرسي مريح، أخذ نفسين عميقين وأرخى عضلات جسمه، وهو مغمض العينين، ثم قال لنفسه switch off وتخيّل أنه أطفأ الكهرباء عن جسمه وعقله الواعي، فوجد نفسه يغوص في غشية عميقة، ثم تخيل نفسه ينزل سلّماً، وكل درجة ينزلها تعمّق نومته ألف مرة، بعدها رأى نفسه يطير بالفضاء، ماراً بتجربته الأولى مع لوتشيا، وما إن عبر البوابة الفضائية الذهبية الضخمة، حتى

وجد نفسه يهبط بسهولة ويُسْر على أرض خضراء، ورأى نفس حذاء جون هوبكنز.

* * *

رفع جون رأسه فرأى الأرض على امتداد الخضار، والخضار على مدّ النظر، فكر مبتهجاً:

- هذه أرضي.

كان قد اشترى منذ أيام، هذا القصر الريفي الجميل، الذي تحيط به آلاف الهكتارات من الحقول والغابات، يعمل فيها فلاحو القرية التي يملكها ضمن الإقطاعية، وملحق بالقصر إسطبل للخيول وملحق آخر لسكن الخدم والسوّاس، ويعمل في القصر مجموعة من الخدم والخادمات.

كان قد باع البيت الريفي القديم، واشترى هذا البيت قرب ليفربول بدلاً عنه، وإضافة إلى هذا القصر، لديه بيت في لندن حيث يقضي معظم أيامه، ولديه ممتلكات أخرى متفرقة، بعضها في الهند المحتلة قرب البنجاب، ويساهم كذلك في رأس مال مصرفين مهمّين في لندن، ومداخيله

ضخمة رغم إسرافه وتبذيره على حياة البذخ وليالي السهر في القصور، قد تكون فضيلته الوحيدة هي كرهه للقمار، لكن مثله مثل أقرانه الإقطاعيين العاطلين، كان يسهر ليلاً وينام نهاراً، وكان يبدأ يومه بـ Champaign breakfast، أي كان يشرب الشامبانيا على الفطور، كما هي عادة طبقته الاجتماعية، وذلك لكسر خُمار الليلة الفائتة.

ولكنه كان في بعض الأحيان يحتاج إلى الاختلاء بنفسه، ليكتب قصيدة أو مجموعة من القصائد، فكان يغيب عن المجتمع الصاخب، ويذهب إلى مزرعته القديمة، ولأنها كانت بعيدة وقديمة، وكان إنتاجها قليلاً، باعها واشترى هذه المزرعة الكبيرة، القريبة نسبياً من لندن، كانت أكبر وأغنى في محصولها من الأولى، كان صاحبها القديم محتاجاً إلى النقود، كي يسدد ديون خسارته في القمار.

لم يستغلَّ جون ظروف الرجل، فهو لم يكن نذلاً على الإطلاق، لكن الرجل سعى إليه لمعرفته بوالده، ولمعرفته بأن جون حصل على أموال طائلة، جراء صفقة رابحة مع الجيش الإنجليزي في الهند، لكنه في كل الأحوال اشترى جون الإقطاعية بأقل من ثمنها الحقيقي.

وهوبكنز الذي كان قد انتقل للتو إلى هذه المزرعة، وتعرف عليها وعلى قريتها وفلاحيها، كان سعيداً لأنها تناسبه من جميع الجهات، لكن تطلّب الأمر بعض التغييرات في الأثاث والديكور الداخلي، ووضع نظام للإنتاج أكثر حداثة وصرامة، بعد أن قال له مدير المزرعة، إن الإنتاج كاد يتوقف بسبب إهمال المالك القديم، وانشغاله بلعب القمار، وتبذيره للمداخيل دون تخطيط للاستثمار، ورغم أن جون عازب ولعوب، لكنه كان يعطي لكل شيء حقه، ولذا فإنتاجه الشعري غزير، ومستوى شعره رفيع، وعندما يعود من إحدى زياراته للمزرعة، كان يُطلب منه في الصالونات قراءة قصائد جديدة، كانت تنال الإعجاب، وكانت النساء يَذُبن لصوته ولإلقائه، فهو يجمع بشكل فذّ، وسامةً، وشعراً جميلاً، وصوتاً وإلقاءً جميلين، كان جذاباً بأناقته، يحسده ويكرهه الرجال، وكانت النساء يلمِّحن إلى أنه أقام علاقة معهن، حتى وإن لم يكن الأمر غير ذلك، وحدثت مشاجرات مخجلة في صالونات الرقص حول هذا الموضوع، ولم يستطع أزواجهن فهم السبب، وكانت العازبات يقتربن منه

في صالات الرقص العامة ويطلبن منه بطريقة غير مباشرة الرقص معهن، وعندما يفعل تبدأ مشكلات الغَيرة النسائية والرجالية.

كان أشبه بجيوفانو كازانوفا، العاشق المعجزة، الذي نُسجت حول علاقاته النسوية أساطير، اقتربت من الخيال في فينيسيا، ففي الحكايات المروية والمتناقلة شفاهًا، تتضخم الأمور ويبالَغ فيها، لكن الأسطورة تبدأ بنواة حقيقية، ثم تنحرف بناءً على مشاعر البشر، ومواقفهم العاطفية، سواء بالسلب أو الإيجاب.

وفي حالة هوبكنز، كان مكروهاً من الرجال المترهلين على أنفسهم، ناقصي الموهبة والرشاقة الروحية، الضعفاء جنسياً، والمتباهين باللاموجود، مختارين تصديق بعضهم لبعض، ولأن جون كان خارج السرب، يعرف ما يبذلونه من جهد للإساءة له ولا يهتم، بل ينحني لهم محيِّياً مع ابتسامة تزيد غيظهم، كانوا يتخبطون في إشاعاتهم لدرجة التجني، يكرهونه لكنهم لا يستطيعون التقليل من احترامه، فله مكانة حتى بين العائلة المالكة.

وفيما يخص علاقاته النسائية، يعترف لأصدقائه بأنه

يحب الحياة، وأجمل ما في الحياة هو النساء، وعندما سأله أحد أصدقائه ممازحاً:

- كيف تستطيع تحمُّل معاشرة كل هؤلاء النساء، هل لديك دواء مقوٍّ؟

يضحك قائلاً:

- الدواء السحري هو الحب.

- أحببت كل النساء اللواتي عاشرتهن؟!

- نعم، حتى وإن كان الحب ليوم واحد.

ولكنه لم يكن داعراً أو نذلاً على الإطلاق، فإذا سئل عن إمرأة:

- هل صحيح أنك عاشرت فلانة؟

كان يجيب بجدية وصدق:

- فلانة امرأة شريفة، مخلصة لزوجها، ويجب ألاّ تُزجّ في الإشاعات المميتة.

لا يفصح عن علاقاته، حتى لأقرب أصدقائه، تاركاً الأمر للتخمينات التي لا يستطيع الرد عليها، أو لمباهاة النساء أنفسهن، سواء كنَّ صادقات أم مدّعيات، وفي كلتا الحالتين لا يستطيع التحكُّم بما يحصل.

لكن للأمر مغبة، فأحياناً لايقف الأمر عند حدود النميمة والإشاعة المغرضة، فبعض الآباء والأزواج الغيورين، لا يكتفون بسدِّ آذانهم.

* * *

ذاكرة الوحمة

كلما حصلت فضيحة أخلاقية، أُلقي باللوم على جون هوبكنز، لكن لا أحد يواجهه لعدم تأكدهم، أو لعلمهم ببراءته، حتى جاءت فضيحة مدوِّية، حين علم السيد ريتشارد هنكسلي أن ابنتِه ذات السبعة عشرة ربيعاً حامل، وباستجوابها طويلاً وبعنف أحياناً هو وابنه مارك:

- هل هو ابن هوبكنز؟

ولكي تحمي عشيقها، هزت رأسها من بين دموعها:

- نعم.

فصرخ الأب محمر الوجنتين:

- هذا الداعر الفاجر، يجب أن يشنق في ساحة عامة، لارتكابه جرائم بحق العائلات النبيلة.

وهنا قال ابنه متحمساً:

- سأقتله بيدي.

لكن الأب الخائف على ابنه قال:

- لا، لا ياولدي لا أريد أن أفقدك، لندع السلطات تأخذ حقنا.

ولكن الفتي الغاضب أصرّ:

- لن أجعل من نفسي أضحوكة زملائي وأصدقائي، لن أجعلهم يصفونني بالجبن.

وبعد محاولات عديدة لإقناعه بالعدول عن رأيه، قال الأب:

- إذاً اطلبه لمبارزة شريفة، وليكن الله في عونك.

وفي إحدي الليالي، في صالون من صالونات لندن، بينما كان يتحدث إلى مجموعة من أصدقائه، سمع جون هوبكنز صوتاً من خلفه يقول:

- أيها النذل هوبكنز.

التفت جون متفاجئاً، وما إن استدار ليرى محدثه، حتى تلقّى ضربة مباغتة بقفاز على وجهه، شهق الجمهور المحيط به، ووضع جون يده على خده، وتفرس بالشاب الغاضب، يحيط به أصدقاؤه، وسأل بأدب:

- من أنت ياسيدي؟

- أنا أخو الليدي المخدوعة ماري هنكسلي.

وقبل أن يتكلم جون، استطرد مارك:

- أدعوك للمبارزة انتقاماً لشرف أختي، اختَر الزمان والمكان، واخبرني به لاحقاً.

ثم أعطاه ظهره، وغادر وسط دهشة الناس الذين انهالوا بالأسئلة على جون:

- ماذا حدث؟ ماذا يقصد؟

ولكن جون ظل مبهوراً لا يملك جواباً، لكن لم يعد الأمر سراً، إذ انتشرت قصة حمل ماري هنكسلي سفاحاً من جون هوبكنز، وقد تحدد موعد المبارزة التي أصبحت حديث لندن اليومي، وقد حاول بعض الحكماء وقف إراقة الدم بين الطرفين، وإقناع جون بالزواج من ماري، والاعتذار لعائلتها، رفض مارك هنكسلي التخلي عن تحديه، رغم خوفه من الموت على يد جون، المعروف بمهارته بالمبارزة، سواء بالسيف أو بالمسدس، كما رفض جون الموافقة على اقتراح الزواج، لأنه ليس المعني بهذه الفضيحة، لكن إن اعتذر الشاب وانسحب من المبارزة، فلا مانع لديه من حقن الدماء، ولكن ليس قبل تطهير سمعته.

سادت أجواء من التوتر والترقب، مع قرب موعد المبارزة، وكثرت الأحاديث والشائعات والتكهنات، كان خلالها الشاب مارك يشرب كثيراً، وينام قليلاً، وكانت خلالها ماري تشعر بذنب يؤرقها، وكان عشيقها الحقيقي في حالة حيرة من أمره، وخاصة عندما سمع عن احتمال زواج هوبكنز بحبيبته، وقد ازدادت المسألة تعقيداً مع خبر المبارزة.

وفي يوم المبارزة، اقترب المتبارزان من الحكّام لاختيار السلاح، واختار مارك المسدس لقلة مهارته بالسيف، ثم أجريت قرعة لأولوية مطلق النار، فوقعت على مارك أيضاً، خطوا عشرين خطوة كما طلب الحكم، متعاكسي الاتجاه، وصوّب مارك مسدسه باتجاه جون، بينما كانت يده ترتجف، وحبات العرق تنز من جبينه، وأطلق طلقة أصابت كتف جون الأيسر، سقط جون على ركبتيه بعد أن استدار نصف دورة إلى اليسار، بسبب قوة دفع الرصاصة، وسط بعض الضجة والهمهمات، ثم جاء دور هوبكنز في إطلاق النار، وجّه فوهة مسدسه باتجاه

قلب مارك، لكن مارك سقط على ركبتيه مرتجفاً، فأطلق جون رصاصته في الفضاء، وبهذا انتهت المبارزة التي أصبحت حديث المدينة لأشهر، وتحلَّق الجميع حول جون لإسعافه، بينما اتجه أصدقاء مارك إليه ورفعوه من على الأرض وأركبوه عربة إلى بيته.

لا حاجة للقول، إن هذه الحادثة قد أعطت هوبكنز شهرة وتقديراً كبيرين، وخاصة بين النساء اللواتي كنّ يزرنه، للإطمئنان عليه، حيث أصبح أكثر جاذبية لهن، كانت فروسيته ونبله وشهامته، مثار إعجاب حتى عند الرجال الذين يكرهونه، لكن تضاعفت غَيرتهم منه، واستُقبل استقبال الأبطال في إحدى الصالونات، وتحلقت النسوة حوله، وأثارهم منظر يده المعلّقة.

وفي هذه الأثناء إعترف عشيق ماري بفعلته، وطلب الزواج منها، ووافقت الأسرة بذلّ، وانتقلت بعارها من مدينة لندن، وعاد جون إلى حياته مرفوع الرأس، ولكن هذه الحادثة، جعلته يوافق على شراء المزرعة من صديق والده، كان قد سئم من ملاحقات النساء، ومن الغَيرة

والإشاعات، وأراد وقتاً هادئاً لنفسه ولشعره، بعيداً عن أجواء المدينة الصاخبة.

* * *

كان واقفاً يتأمل المساحات الخضراء في إقطاعيته الجديدة، عندما سمع صوت الخادم يقول له:

- رسالة لك يا سيدي.

تناولها جون من على الصينية الفضة، وفضّ ختمها وقرأ:

"سيدي جون هوبكنز

أرجو أن تصلك رسالتي هذه، وأنت بأتم الصحة.

تشرفني دعوتكم إلى العشاء العائلي الذي يقام على شرفكم، بمناسبة إقامتكم الجديدة، وحيث إننا أصبحنا جيراناً، لسيد مرموق وشاعر عظيم مثلكم، نرجو أن تتوطد الصلات والصداقة بيننا، وأنا على استعداد لمساعدتكم بخبرتي ونصائحي، للاستفادة القصوى من إقطاعيتكم العتيدة.

إبقَ بخير

المخلص لكم

السير بيتر سلفرثورن الثاني"

كتب جون هوبكنز رسالة جوابية، بالموافقة على الدعوة المحددة، مع الشكر والتقدير الكبيرين، وأعطاها لرسول السير سلفرثورن.

* * *

ألف امرأة وألف حب

استُقبل جون هوبكنز، عند بوابة قصر السير بيتر سلفرثورن الثاني، وهو إقطاعي كبير، لكنه يعتبر هذا القصر هو بيته الرئيسي، ولا يذهب إلى لندن إلا مرات معدودة في السنة، رغم أنه يملك بيتاً كبيراً هناك، لكنه اعتاد حياة الريف، مفضلاً متابعة الزراعة بنفسه.

صافح السير بيتر جون هوبكنز بحرارة، وعرّفه بزوجته وابنه ذي الثانية عشرة من عمره، وأردف:

- وأعتذر عن عدم وجود ابنتي ربيكا، التي ذهبت بجولة على حصانها، ووعدت بالعودة في الوقت المناسب.

وفي المنزل، قُدِّم الشراب للضيف، وتم تبادل أطراف الحديث عن السياسة، وأخبار الهند، والزراعة والمحاصيل، ثم أعلن رئيس الخدم:

- العشاء جاهز.

نظر سلفرثورن إلى زوجته متسائلاً:

- ألم تأت ربيكا بعد؟

أجابت وهي تشعر بالإحراج:

- أنا متأكدة أنها في الطريق، فلنبدأ العشاء وستلحق بنا.

كان الأب مستاءً من سلوك ابنته غير المنضبط، ولكنه تماسك وهو يشير لمكان الضيف قرب زوجته، وما هي إلا دقائق حتى دخلت ربيكا بشكل عاصف إلى غرفة الطعام، كانت تلبس بنطال ركوب الخيل، وحبات عرق تلمع على جبينها، قالت معتذرة:

- أعتذر عن التأخير، لقد التوت رجل الفرس و..

ولأن والدها يعرف أعذارها الواهية، رمقها بغضب، بينما وقف جون بنفس اللحظة احتراماً، قالت ربيكا:

- سأغيّر ملابسي خلال دقائق وأعود حالاً، أعتذر مرة أخرى.

قال جون بتهذيب:

- بما أننا قد أصبحنا جيراناً، فأنا متأكد بأن السير سلفرثورن سيسمح لك بالجلوس معنا بملابسك الأنيقة هذه.

نظرت ربيكا إلى عيون والدتها ووالدها، اللذين ظلا صامتين، فأشارت الأم للأب الذي قال على مضض:

- إجلسي الآن مع ضيفنا الكريم، وسنناقش أمر الفرس لاحقاً.

جلست ربيكا تلتقط أنفاسها، وسكب لها الخادم شوربة، وظلت تتابع حوار أبيها مع جون هوبكنز، الذي ذاعت شهرته في كل مكان، فكانت تختلس إليه النظر، وهو يتحدث برشاقة ولباقة، سأل بيتر:

- قل لي سيد هوبكنز، إذا سمحت لي بالطبع، ما قصة تلك المبارزة السخيفة؟

فأنشدت ربيكا بكلّها، تنتظر إجابة هوبكنز، بعدما أصبحت المبارزة كالقصة الخيالية، قال هوبكنز مبتسماً ابتسامته الساحرة:

- أخشى أن مجتمعنا أصبح يعتاش على الإشاعات والحسد والفضائح، ونسينا قضايا الإمبراطورية الملحّة، وأصبحنا نتبادل كيْل التهم، وهذا في ظني سيضعف بريطانيا العظمى، ويقلل من شأنها وهيبتها بين الأمم.

هز الأب رأسه إعجاباً، فسأل الابن المتحمس:

- لماذا لم تقتله يا سيد هوبكنز؟

ولكن الأم لكزته بكوعها، وقال الأب:

- ليست هذه مواضيع للصغار.

قال هوبكنز:

- لا بأس من الإجابة يا ستيف، فإذا استمرت بنا الحال هكذا كبريطانيين، فلا بد أن تتعرض إلى هذا الموقف المؤسف، ولا بد أن والدك قد علّمك رحمة الضعيف، وأن القوة في المغفرة، هكذا تصبح فارساً نبيلاً.

فردّ الأب وهو يفتل شاربيه:

- بالتأكيد يا بنيّ، سأعلّمك تفاصيل ذلك عندما تكبر.

كانت ربيكا صامتة، ترقب حركات يدي جون، وتسمع منطقه، وفي هذه اللحظات سألت السيدة سلفرثورن:

- وما هي أخبار الشعر سيد هوبكنز؟ أرجو أن يكون المنزل الجديد، جواً ملائماً للإبداع.

أجاب هوبكنز:

- بالتأكيد يا سيدتي، لم أكتب قصائد منذ زمن بعيد، وقد أجد فرصتي في هذا الفضاء الهادئ.

وهنا سألت ربيكا بخبث:

- وما نوع القصائد التي ستكتبها؟ من نوع التقيت بألف امرأة، وأحببت ألف مرة؟

التفت إليها والدها غاضباً:

- ربيكا.

وبان الحرج على وجه والدتها فقالت:

- عزيزتي.

ابتسم جون قائلاً:

- لا بأس، ويبدو أن الآنسة ربيكا قد قرأت هذه القصيدة، وهذا بالتأكيد شرف لي.

وتحول الحديث إلى حوار بينهما لا يخلو من مناكفة وسخرية متوارية خلف الكلمات المهذبة على غرار:

- لم أكن أعرف أن فتياتنا يقرأن الشعر، كان في ظني أنهن يهتممن بالتوافه وبالنميمة السطحية، الخالية من كل ثقافة، وهذا ما يدهشني منك يا آنسة.

فترد:

- ليس بجريمة أن يكون ظنك خاطئاً سيد هوبكنز، وقد قلت بصدق قبل قليل، وبكثير من الحكمة، أن سلوك

بعضنا سوف يدمّر هذه الإمبراطورية، مثل انشغال رجالنا بملاحقة النساء، وقضاء الليالي بالسكر ولعب القمار، والإحجام عن التطوع في جيش بريطانيا العظمى، وهذا أوافقك عليه.

واستمر هذا الحوار والمناكفة الخفية، حتى قطعها السير سلفرثورن بقوله:

- ما رأيك أن ننتقل إلى غرفة التدخين سيد هوبكنز؟

كشف الاكتشاف

- يا ألله.

قال سالم لنفسه وهو في حالة من الدهشة والمفاجأة والاكتشاف، واكتشاف الاكتشاف، وكأنه عاد من رحلة طويلة، استغرقت دهوراً، رحلة عبر الزمان والمكان، تضيف معنًى وحكمة، وبعداً للوعي، وفهماً لآفاق أبعد من جسد الإنسان وواقعه المحدود، آفاق مطلقة، لا نهائية.

فكر في رحلة تأمل:

- كم هو محدود الإنسان، قانع بجهله وسذاجته، غارق بالتوافه والحروب، لا ينظر إلى أبعد من قدميه، قد يكون أقرب إلى وحل الغرور الواهم، والادعاء المتعجرف بالعلم والفهم، كمن ينظر إلى هرم من جهة واحدة، ولا يرى الجهتين المتواريتين، ويدّعي الفهم والمعرفة.

ولو عرف الإنسان، هذا المتناهي في الصغر،

المتناهي في العظمة والكبر، مكانته الكونية، لتغيُّر إدراكه للحكمة الأرضية المحدودة، لحكمة لا تحدّ، من شراسة وتعب النسبي، إلى سلام المطلق، حبيس هذا الإنسان في دائرته الصغيرة، التي يقضي سنوات عمره بالدوران فيها، حتى يوم مماته، دون محاولة صغيرة للخروج من هذه الدائرة.

كيف يستطيع أن يرحل إلى سحيق الوقت، وكأنه لم يفنَ أبداً، وحدها الطاقة لا تفنى، وإن كان الإنسان طاقة، كما يقول العلم، فهو يستطيع الانتقال عبر الزمان والمكان منذ الأزل، تاركاً آثاره الفكرية والشعورية، كبصمات على وجوده، جالباً معه آثار الماضي كي تذكِّره بالعبر، مثل هذه الوحمة على الكتف الأيسر، هي نتاج حقد وكذب إنساني، لم تمسحه رياح الزمن، كما تمسح نقوش الرمال، هي بصمة الشر، تذكِّرنا بما اقترفنا من حب وكراهية، من نبل ووضاعة، من تسامٍ وخسّة، هي إثبات للهمجية المتأصلة فينا، حتى وإن ادّعينا التحضُّر، هي شاهد على شهوة تدمير لا أخلاقية، مغلَّفة بالاحتشام

الكاذب والفاضح للادّعاء بفضيلة غير موجودة، طلقة نارية تكشف محدودية البشر، ونقص إنسانيتهم.

كان سالم يتأمل في تجربته، وكأنه كبُر مئات الأعوام، وتحسَّس مشاعره، فوجدها ساخنة، متواطئة مع جون هوبكنز، مع نفسه الماضية، وكأن الظلم قد وقع عليه تواً، شعر بأنه هو بكل تفاصيله، وتعاطف مع نفسه، وتفهَّم يأسه من تخلُّف الناس وغبائهم، وعدم فهمهم لما هو حقيقي، وازدواجيتهم ما بين الظاهر والمخفي، بل وفجورهم بمخاصمة، الناس الذين لم يفهموا حتى الآن كنه الصدق والنبل.

رأى في جون، ما يؤكد نبله غير المفهوم، وشعر أن سلوكه وشعوره غير شاذَّين، بل هما متوارثان من قرنين وربما أكثر، أصيلان لا ادعاء فيهما، وهذا يفسر اختلافه عن إخوته الأشقاء، فالتربية واحدة، لكن الماضي مختلف، وحتى مبدأه في الزواج كرهه القيد، وقد يكون جون قد ورثه من حياة سابقة، التي تعتبر حياته هو في نفس الوقت، كذا الشعر الذي قد يكون موروثاً من تاريخ أقدم، وحياة أسبق.

عجيب هذا الاكتشاف، ومؤثر بقوة كقوة تأثير الإيمان، أن نكون قد خبرنا الحياة مرتين أو أكثر، أمر مدهش، إذ يمكن للإنسان تفسير ما يمر به أو بعضه على الأقل، لكن هل يمكن لنا معالجة بعض أمورنا في حياتنا الحالية، إذا عرفناها بالماضي؟ أو هل يمكن تفادي تكرار أخطائنا؟

* * *

- ياالله..

قال سالم ذلك لنفسه واستطرد:

- هي بعينها، بروحها، بهالتها، رغم أن ربيكا بيضاء شقراء، وشيخة سمراء ذات شعر كستنائي، لكنهما شخص واحد بشكلين مختلفين، وخفقة قلبي عندما التقيتهما في الماضي، تكررت عندما التقيتهما في الحاضر، وعندما أتذكر وجه شيخة الآن، أرى طيف ربيكا، وعندما أتذكر ربيكا الآن أرى طيف شيخة، شيء عجيب وغريب.

شعر سالم بشيء من الرَّبَك الداخلي، والاكتظاظ في أفكاره كغابة متشابكة تمنع وصول الضوء، كالعاصفة ترجّ

سفينته، بعد أن كانت تبحر على مرآة البحر، لا يعلم إن كان ما رآه وهماً أم حقيقة، هل هي خيالات أو أمنيات؟ أم هي حقيقة من الحقائق الكثيرة التي يجهلها الإنسان؟

مرَّ على قراءات في الماضي، تتحدث عن إيمان كل الحضارات القديمة بالتناسخ، بل هناك بعض الطوائف الإسلامية تؤمن بذلك، مثل طائفة الدروز، ويبدو أن البشرية تعيد اكتشاف المكتشف مرة بعد مرة، وكأن الاكتشافات القديمة غرقت مع قارة أطلانتس، ثم أعاد الإنسان اكتشافها من جديد، بدأ من الصفر، لكن ذلك يعني في كل الحالات، أن الاعتقاد بالتناسخ موجود منذ طفولة التاريخ، إلا عند عرب الجزيرة التي لم تلون حياتهم الصحراء الصفراء، لذا لم يبرعوا بأي فن ما عدا فن الكلام، كانت حياتهم جافة كجفاف الصحراء، لا زهور ملونة ولا فلسفة خضراء.

لكن هل يخبر شيخة بهذا الاكتشاف؟ فهي لا تؤمن بالحياة السابقة، وقد يكون إخبارها بذلك شكلاً من أشكال قسر العلاقة، وهو ما لا يريده، قد تظن أنه يحاول اصطيادها بهذه الخدعة، التي قد تعتبرها سمجة غير

ناضجة، من رجل يفترض بأنه ناضج، لا يريد تعريض نفسه إلى موقف قد يضعه في دائرة السخافة، خاصة في ظل علاقة قصيرة، كبرعم مازال تحت الأرض، لم يرَ نور الشمس بعد، ولم يقوَ عوده، وربما يموت في مهده.

فليترك الأمور تجري تلقائياً، بل هذا يمكِّنه من اكتشاف علاقة جون بربيكا دون توجيه لعلاقته الناشئة مع شيخة، أو تأثر شيخة إيحائياً بالعلاقة الماضية، مما ينفي تلقائية العلاقة، ونموِّها الطبيعي، هذا إن استمرت.

كان سالم في حالة عدم صفاء وعدم يقين، لبس المايوه، واتجه إلى بركة السباحة، يريد صرف أفكاره عن هذا الموضوع، فتح كتابه ولكنه لم يقرأ كلمة واحدة، كان الاكتشاف يستحوذ على المساحة الفكرية، على تركيزه، كانت ذاكرته أشبه بومضات بين صور الماضي والحاضر، شغلته ربيكا / شيخة، كما لم تشغله امرأة من قبل، حتى جيوفانا التي غادرته جريحة هذا الصباح، نسيها وكأنها لم تكن جزءًا من حياته، حاول وهو ساهم استرجاع علاقاته النسائية السابقة، فلم يجد ما يشبه علاقته مع ربيكا أو شيخة، وأصبح الأمر أكثر تشوهاً وكأنها لوحة لم تكتمل.

كل ما كان يريده في تلك اللحظة، هو أن يرى شيخة، هل كان يريد وضوحاً أو تعليلاً، أم هو شكل من أشكال الشوق الذي لم يألفه في حياته؟ لكن شيخة تحضر المؤتمر السينمائي.

الطفو والغرق

انتبهت ودقَّ قلبها بقوة مع التصفيق في قاعة المؤتمر، لفيلم فاز بجائزة، فقد كانت وكأنها طافية على سطح ماء، كانت شيخة تعيش حالة جديدة عليها، كانت حالة لذيذة ومخيفة لها بنفس الوقت، فإن تذكرت الشعور اللذيذ طفت على الماء، وإن تذكرت خوفها من الشعور الجديد، تشهق وكأنها أخرجت رأسها من الماء بعد غرق واختناق.

استرجعت أحاديثها مع سالم حول بركة السباحة، وإلى طاولة العشاء، وتذكرت أن الأوقات مرّت كالثواني، كان فيه شيء يجذبها بقوة، ويضعفها بشكل لذيذ، وهو شعور لم تعهده من قبل، كانت عيناه تتغلّل في أراضي روحها، وتغزو كل نسيج في جسدها، لم يكن مثل الرجال العديدين الذين مروا عابرين حدودها بإرادتها، وخرجوا من الحدود الأخرى، كان غازياً استولى على كيانها بحد عينيه، وفتح أبواب قلاعها بملامحه وكلماته،

حتى انتبهت إلى النُّدُل الواقفين، الذين كانوا يتنحنحون بين الفينة والأخرى، تلفتت فلم تجد غيرهما في قاعة الطعام ذات الجدران الصخرية، كانت كمن يصحو من غفوة، سألت:

- وين جيوفانا؟!

- استأذنت.

* * *

لا تنكر أنها شعرت بغَيرة من هذه المرأة الإيطالية، وهي بطبعها غيورة، أنانية، استحواذية، كانت دائماً تريد ما بيد الغير، حتى وإن كانت مكتفية، فعندما كانت صديقاتها يتعرفن إلى رجال، كانت غَيرتها النارية تجعل عينيها تترقرقان بالدموع قهراً، رغم أنها قد تكون جالسة بقرب رجل، لا تحتمل أن يهتم رجل بغيرها من الصديقات، فإذا ما ذهبت صديقتها إلى الحمّام مثلاً، تجدها تقفز لتجلس قرب صديقها تداعبه وتضحك معه، ضاربة عُرض الحائط بصديقها الذي كانت تجلس بجانبه، رغم أنها لا ترضى من صديقاتها أن يتحدثن مع الرجال

الذين تتعرف إليهم، وكثيراً ما تقودها غَيرتها إلى اللجوء إلى إفساد علاقة صديقاتها بالرجال، وبطرق مختلفه حتى وإن تطلب الأمر تشويه صورتهن، فلا ترتاح قبل حصولها على الرجل، حتى وإن لم يكن يعجبها، هنا فقط تشعر بالانتصار، وترضي حب التملُّك لديها.

وإذا أحست بخطر فقد الرجل، تبدأ بالتقرب إليه أكثر:

- "أحبك وأنت.. تحبني"؟

فهي من تقرّر إنهاء العلاقة، لكنها كانت دائماً تحتفظ بأكثر من علاقة، حتى تشعر بالأمان، تحب دائماً بأن تكون محاطة بالإعجاب، فدائماً تسأل الرجل:

- "شرايك فيني"؟

أو:

- "أنا حلوة"؟

فإذا ضمنت ولاء الرجل ومحبته وهيامه بها، كانت تشعر بالشبع، فإذا قال لها:

- "أحبك".

كانت تصمت، أو ترد:

- "زين".

تريد من الرجل أن يحبها، ولكنه إذا تعلق بها، ملته أو قرفت منه أو أحست بالاختناق، ويبدو ذلك أفضل وقت بالنسبة إليها لعلاقة جديدة، والتخلص من العلاقة القديمة، التي أصبحت مملة.

لكن نهمها الجنسي لا يشبع، وعشقها للإطراء في تزايد، وفهمها للحرية يتسع مع اتساع علاقاتها، واستمرارها في الإيغال بعلاقات متنوعة، طارئة وسريعة، حتى إنها مارست الجنس مع نساء، دون أن تكون شاذة جنسياً، وكل ذلك بالنسبة لها تجارب، وحق للحياة التي لا يفهمها المتخلِّفون من أبناء جلدتها.

* * *

لكن هذا الرجل المختلف، سالم الذي التقته لقاءً قدَرياً، وكأنه كان غائباً لسنوات، أو كان منتظراً منذ عصور، مسَّ روحها من الداخل، فأضاء شيئاً ما، لم يكن موجوداً من قبل، وهذا يثير الذعر في نفسها، لم تعتد الغرق بكلِّها في حالة ذهنية أو شعورية، دون أدنى

مقاومة، ففي علاقاتها كانت تبقي على جانب واعٍ من عقلها، كانت متحكِّمة غير مسترخية، كمن لا يريد أن يغطَّ في نوم عميق، حذِرة من مغبة الانسياق، رغم أن كل علاقاتها كانت تسمّيها حباً، فعندما تغلق الهاتف من شخص، تتصل بآخر:

- "هلا حبيبي، ولهت عليك".

وتكون لتوها قد قالت ذلك لمن سبقه، والغريب أنها منسجمة مع نفسها، لا تشعر بذنب، ولا تعتبر نفسها قد خدعت الرجل، ولكن هكذا هي، بيد أن "سالم" لديه قوة سحرية لا تقاوَم، لا تعلم ما هي أو كيف، وكأنه كان مدفوناً في لجة أعماقها، ورؤيته كانت نبشاً لهذه الأعماق.

قضت الساعات في المؤتمر، وهي خارج المؤتمر، شاردة الذهن، تعتمل في دواخلها أشياء لم تختبرها من قبل، وكأنها تغييرات كيميائية تُفقدها توازنها وتحكُّمها بنفسها، شعور مخيف وكأنها أمام مرحلة جديدة في حياتها.

خمسة وثلاثون عاماً عاشتها، ولا تذكر أنها مرت بهذا الشعور المرعب واللذيذ معاً، الذي يشبه ولا يشبه

شعور الألم البدني الذي تتلذَّذ به وتمارسه، كانت تستعجل الوقت للذهاب إلى الفندق كي تلتقي "سالم"، لا تعلم لماذا ولكنها تشعر بضرورة لا تقاوم لرؤيته، رغم قصر فترة تعارفهما.

شرفة القلب

- "مرحباً".

سمع صوتها من خلفه، وشعر كأن فراشات طارت عن شرفة قلبه:

- "مرحبتين.. أهلين".

ردَّ، ثم استطرد مبتسماً، مخفياً فرحاً طفولياً:

- "ها، شلون كان المؤتمر"؟

تنهدت وكأنها تزفر التعب:

- "خلص ولله الحمد.. بس كان وايد ممتع ومفيد".

أشار إلى الكرسي بيده قائلاً:

- "استريحي".

رفعت خصلات شعرها عن وجهها وقالت:

- "خلّيني أروح أودّي أوراقي الغرفة، وأغسل وألبس مايوه، وأرجع لك، وإلاّ عندك Refresh my self التزامات"؟

ردَّ كمن يبرئ نفسه:

- "أبداً أبداً، أنتظرك".

ذهبت إلى غرفتها، فاتجه إلى حافة البركة وقفز فيها محدثاً ضجة مائية، وتناثر الماء والرذاذ، وظل غائصاً في الماء فترة، قبل أن يخرج رأسه وينفث الماء من فمه.

رآها قادمة من بعيد بخطوات قصيرة سريعة، فخرج من الماء متجهاً إلى كرسيه، ونشف نفسه بالفوطة، فرشت شيخة الفوطة على الكرسي، ووضعت كتابها على الطاولة بينهما، التفتت ناحية البركة ثم سألت:

- "عيل وين جينوفا"؟

قال لها غير مهتم:

- "رجعت روما اليوم الصبح".

ولما استفسرت بعينيها استطرد:

- "أمها مريضة وراحت تشوفها".

لم تستطع حبس فضولها:

- "ومتى بترجع"؟

- "ما أدري".

لم تستطع حبسَّ سعادتها:

- "وشسويت اليوم"؟

- "أبداً، ضحيتْ أفطرت، وظليت أقرا".

بطبيعتها الغيورة:

- "ما تعرفت على أحد اليوم".

- "لا والله.. تغديتي"؟

- "لأ".

- "شرايك نطلب سلطة وسندويتشات"؟

- "أوكي".

طلب سالم من النادل سلطة، وشندويتشات وكأسي نبيذ، واحد أبيض والآخر أحمر، كانا وهما يتحدثان تحيط بهما هالة مشرقة، كانا مقتربين شعورياً إلى حدِّ الانصهار، كان بريق عينيهما استثنائياً، يشي بما في قلبيهما من عالم جديد زاهي الفرحة، التي يتمنى الإنسان خلالها توقُّف ساعات الدنيا، في كل أركان العالم.

في ذلك اليوم كان شعورهما حقيقياً، لا لبس فيه ولا وهم، يشعران بهذا الشعور بجسديهما، بتنفسهما، بدقات قلبيهما، بعيونهم الضاحكة، بتدفق الدماء في وجهيهما، بارتخاء عضلات وجنتيهما، بالنظرات التي تقول وتقول، بخطٍّ مواز لحديثهما.

سبحا في البركة، ضحكا، تناقشا، تبادلا حكايات عن ماضيهما، كانا متآلفين، وكأنهما صديقا طفولة، رغم فارق السنّ، كانت البهجة والسعادة الطفوليتين في عينيهما، كأعراس العصافير، كانا خارج الوقت، وعندما انتبها إلى ما حولهما، وجدا أنهما من بقي حول بركة السباحة، كانت الشمس قد بدأت بالمغيب خلف التلال، فبدت قممها ذهبية، وفي هذا الوقت كان حارس الإنقاذ ينظف أرضية البركة بخرطوم طويل.

* * *

- "شنهو راح تسوِّين الحين، بعد ما انتهى المهرجان"؟

أجابت:

- "كنت مقررة آخذ إجازة أسبوعين، أريح شوية من الشغل".

قال بأشبه ما يكون دعوة:

- "شرايك نقضيها مع بعض، نتجول بالسيكل"؟

ردّت فرحة:

- "وايد حلو، على الأقل تورريني إيطاليا، وين بتروح"؟
- "بعد باكر، راح أروح لمدينة فيرونا".
- "حلو وبعدين"؟
- "نحطّ خطط أنا وياك، شرايك"؟
- "أحب التجارب والمغامرات".

* * *

في تلك الليلة، رقصا متلاصقين في الحديقة على أنغام الـ ipod بعد أن وصلاه بسماعاته الخارجية، كانت أصوات اليعاسيب تشكِّل vocals أو تناغم هاموني، مع الموسيقى ولغة الجسدين، وكان ضوء القمر المطل من خلف تلال توسكانيا، يشكِّل خطاً فضياً على مياه بركة السباحة.

امتزجت حرارة الجسدين، التي ظلت ترتفع لتغدو حريقاً، وتحولت الأنفاس إلى وهج يحرق الرقبتين، ونبض قلبيهما في كفيهما، في شفتيهما، حركتهما البطيئة كطقوس عبادة سرّية، وعبقت روائح الحب ممزوجة بالعطور وكلونيا

الحلاقة، من منابت الشعر وخلف الآذان، فغابت العيون بانتشاء نصف مفتوحة، وظهر بياضها معلنةً غياباً في اللانهائي، كان الصدران المتلاصقان يرتفعان وينخفضان بسرعة، وكأنهما كانا يركضان في حقول مفتوحة، ودقات قلبيهما المتناغمين اللذين كانا كجري الخيول البرية المتعرقة.

في هذه اللحظة، زحفت الشفاه ببطء من خلف الآذان، إلى الوجنتين، حتى تقابلتا واحترقتا بلظى الأنفاس، ثم التصقتا برفق، ثم بقوة فجرت ينابيعهما الداخلية، وفتنا بالآن وهنا، سحرا في اللحظة الأبدية.

* * *

بالنسبة إليه

كانت كقبلة المراهق الأولى، قبلة جبَّت ما قبلها، واختزلت تاريخه، وأرَّخت لبداية أو نهاية لم يكن يتوقّعهما، كانت تلقائية بشكل مرسوم، وكأن الكون خطط لها منذ الأزل، كأنها نبوءة عرّاف حذّق بالنجوم.

كانت شيئاً خارقاً واستثنائياً، كانت مألوفة وغريبة بنفس الوقت، كانت كصدى يأتيه من زمن موغل في البعد، كحلم الطفولة وزرقة السماء، كرائحة تنفُّس البنفسج في المساء، كلحن ملائكي ملون يتناثر من بين الغمام.

كانت القبلة نسغ حياته، وسراً من أسرار الوجود وكوامنه، كانت خاتمة القبلات، وبداية سرد العشق والهوى، وكأنما استحم بالنور، وتيمَّم بالشعر، دقت في فؤاده طبول الأعراس، وخاصمه النوم.

كان نصف مستلق على سريره، وقد استطال رماد السيجارة بين إصبعيه.

بالنسبة إليها

ألقت بنفسها على السرير، ودفنت وجهها بالمخدة، كاتمة بكاءها، لم تكن تعرف لِمَ تبكي، لم يكن بكاءً يثيره الحزن، ولكنه بكاء من نوع آخر جديد عليها، لا يشبهه شيء مرَّ في حياتها، شيء أشبه بالشجن والفرح ممزوجين معاً.

منذ سنوات وهي كلما قبّلت رجلاً، خفق قلبها بفعل الأدرينالين في الدم ككل البشر، وكثير من هؤلاء الرجال كانت تقرفهم لقبلاتهم الرطبة، أو لروائح أفواههم العفنة، أو على الأقل لا تشعر إلا بطعم بلاستيكي لشفاههم، لكن هذ القبلة تختلف في كل شيء، فلأول مرة تشعر بذوبان داخلي، وتيه عقلى في عالم اللاشيء، كل المشاعر التي كنَّتها للرجال وحسبتها حقيقية، لا تقارن بهذا الشعور الجديد.

كانت مصدومة من نفسها، من هذا الرجل الذي لا

تعلم ما القوة التي يملكها، ليفُكّكها، ويحيلها ذرات بين ذراعيه، فتتناثر كنتف أوراق الزينة الملونة، ببطء.. ببطء.. ببطء وتنفرش على الأرض.

كيف؟ وهي الواقعية الصلبة، الـTough[9]، أي مادة روحية استخدمها لتغيير مكوناتها، وإحالتها إلى غيمة سخية، وجناح فراشة مضيئة، أرقّ من أوراق الزهور؟!

انقلبت على ظهرها، ووضعت كفيها خلف رأسها، وحدقت بالسقف ذي العوارض الخشبية، وكأنها تقرأ الماضي والحاضر، لم يكن للمستقبل معنى في هذه اللحظات، كان ذهولاً رائعاً، ذاك الذي أبقاها يقظة، تستعيد الطعم والرائحة واللمسة السحرية، التي ألفتها في أحلامها، وكأنها استعادت شيئاً افتقدته منذ لاتعلم متى، ولكنه بعيد، كأنها عاشته قبل هذه اللحظة De'j'a vu[10]

ارتفعت بجسدها، مستلقية على ظهرها، مسحت بنظرها الغرفة، حيث فوضى الملابس الملقاة في كل

---

(9) صلب، قاسي.

(10) توهم حدوث شيء، لم يحدث في السابق.

مكان، على الكرسي، على الأرض، وأوراقها المبعثرة، وملابسها الداخلية المنشورة على البانيو، بعد أن غسلتها بيدها، وأدوات الزينة القليلة ومعجون الأسنان المفتوح، الذي أُفرغ جزءً مما في جوفه.

لم يكن المنظر غير مألوف، ولم يكن تركيزها على المنظر، كانت تنظر إلى داخلها، تائهة في عواصف ذهنها، حيث تنعدم الرؤية، ويصبح السير تخبُّطاً، بلا اتجاه واضح ومحدد.

* * *

مدت يدها إلى الهاتف، رفعت السماعة، وضغطت على الأرقام 405، سمعت رنيناً، ثم صوته يقول:

ـ Pronto.

صمتت لثانيتين:

- "ألو.. مرحبا.. نايم"؟

نفخ في ما يشبه الضحكة قبل أن يقول:

- "أهلين.. لا صاحي، ما جاني نوم".

انزلقت إلى أسفل حتى أصبح رأسها على المخدة:

- "وأنا بعد ما جاني نوم".

بعد لحظات صمت قال بصوت مختلف:

- "لا يكون تضايقتي من اللي صار الليلة"؟

نصف شهقة صاحبت جوابها السريع:

- "أبداً.. ابداً.. الحقيقة كان شي.."

صمتت تبحث عن الكلمات:

- "ما أدري شلون أوصفه.. لكنه رائع".

سمعت صوت الولاعة وسحبة هواءٍ متحمسة:

- "معاك حق.. كان شي رائع وجميل، يمكن أول مرة أشعر بهالشعور الغريب".

- "وأنا بعد، كأني أول مرة أمر بهالتجربة".

صمتا وكأنهما يستعيدان اللحظة، كانت أصواتهما أشبه بالهمس، قد يكون ذلك بفعل الليل الذي يفرض علينا الهمس برهبته، أو بفعل خدر القبلة التي ما زال تأثيرها، وكأنها حقنة مخدر قوي.

لم تعرف ماذا تقول، أو ماذا تريد من المكالمة، ولذا سألت:

- "تبي تنام"؟

سأل وكأنه يسأل نفسه:

- "كم الساعة الحين؟ أوه! صارت ثلاث الفجر".

سألته شاعرة بالذنب:

- "أروح"؟

- "لا، لا خليك".

بررت قائلة:

- "أنا بس حبيت أقول لك تصبح على خير".

- "أشوفك باكر"؟

- "أكيد".

- "تصبحين على خير".

- "وأنت من أهله".

جون وربيكا

كان جون هوبكنز يعتلي صهوة حصانه كل صباح، ويتجه إلى بيت سير بيتر سلفرثورن، يتبادلان الأحاديث حول المحصول الزراعي، وحول السياسة، وأمور متفرقة، وكان السير بيتر يرافقه أحياناً في جولة واسعة في حقوله، يشرح له النظام الذي اعتمده للإدارة.

ولاستغراب عائلة السير بيتر، أن ربيكا كانت تجلس معهم في ترّاس أو حديقة المنزل كل يوم في حضور هوبكنز، وكانت تلبس ملابس صباحية أنيقة، بل كانت أحياناً تتظاهر بأنها تفعل شيئاً خارج المنزل، عندما يقترب موعد قدوم هوبكنز، لتستقبله في باحة البيت الكبير، لكنها لم تتوقف عن مناكفاتها له، ولكن بشكل أقل، ولاحظت والدتها بأنها كانت تتصرف بنضج أكثر من قبل، وتستيقظ أبكر من المعتاد.

كانت تصب الشاي لجون بنفسها، وتضيف الليمون أو العسل وتمزجه قبل أن تقدمه له، واستحسنت والدتها سلوك الليدي منها، بعد أن كانت تشتكي من سلوكها الفظ الذي لا يليق بفتاة من أسرة نبيلة، لكنها خشيت بينها وبين نفسها من تعلُّق ابنتها بجون اللعوب، الذي تسبقه سمعته السيئة إلى كل بيت، بينما لم يلاحظ الأب أي شيء غير طبيعي، ولم تخبره الأم بمخاوفها.

* * *

قليلون هم الذين يعرفون أموراً عن سلوك ريبكا الطائش، وعن علاقاتها السرية مع الرجال، فلربيكا أفكار تحررية، خارجة عن المألوف المعلن في المجتمع الإنجليزي المحافظ، لديها قناعات أن مجتمعها منافق، يعيش ازدواجيةً وزيفاً وكذباً، يُظهر نبلاً وشهامة وعفة، ويُخفي تحللاً وتفسُّخاً، ورغم أن كل فئة تعرف ذلك عن الفئة الأخرى، إلا أنهم يلتقون في الصالونات العامة، وكأنهم خرجوا من جلودهم في الليلة الماضية، يتبادلون

الانحناء في تهذيب كبير، ويفسح الرجال المجال للنساء، رغم أنهم قد يكونون قد مارسوا الجنس معهن البارحة، هذا الفساد غير المعلن، يثير غضب وحفيظة ربيكا، ولذا تتصرف أحياناً بتهوُّر وعدم تحفُّظ، ويغيظها أنها لا تستطيع فعل أوقول كل الحقيقة، وتضطر في كثير من الأحيان إلى التخفي تحت رداء الزيف.

واعتبرت ربيكا أن الزواج هو شكل من أشكال الهُوية الاجتماعية الزائفة، التي يتخفى خلفها الأزواج والزوجات، لممارسة الرذيلة، ولذا يدفع الآباء مبالغ كبيرة كمَهر لمن يريد الزواج ببناتهم، وكأنها رشوة لإسكات الزوج عما ستقترفه زوجته في المستقبل، واعتبرت أن الزواج عقد اتفاق شرير بين الزوجين، لغض النظر عن سلوكهما الداعر.

قد تكون مبالغة بآرائها، ولكنها آمنت بها، وفضلت أن تفعل ما يفعل الجميع، دون حاجة لغطاء الهُوية المزيفة، كانت راضية عن انسجامها مع نفسها، حادّة في انتقادها لمجتمعها، كانت تعتبر نفسها أنظف وأشرف من

الزوجات اللواتي كن يسعين إلى الهدايا والمجوهرات، كثمن لأجسادهن، رغم ادّعائهن الحب، وتفانيهن لعشاقهن، كانت تعتبرهن داعرات متخفيات، وكانت تعتبر نفسها صادقة بتلبية حاجاتها دون التفاف أو ادعاء.

وهي تعترف لنفسها بأنها تحب الجنس، وتحب التنوع فيه، وتعشق الغزل والمديح، تحب الاستيلاء على كل الرجال، كما تعترف بغَيرتها من النساء اللواتي يحصلن على رجال وسيمين أو غير وسيمين، حتى إنها غارت من الزوجات. وتنقلها في علاقاتها الرجالية، كسرت قلوب رجال أحبوها بصدق، وهو ما كانت تهرب منه طوال عمرها الشاب، كما كانت فظة مع الرجال الذين يعرضون أنفسهم بفجاجة، ويتعاملون معها وكأنها مشاع، إذ لا شيء يخفى في هذا المجتمع.

كان سائس الإسطبل هو أول من فضَّ بكارتها، عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها، وكان في الثلاثين من عمره، فقد كانت قبلها تهينه وتضربه بالسوط على وجهه وصدره، وظلت سنَة تفعل ذلك إلى أن بصقت في وجهه

في يوم من الأيام وشعر السائس بإهانة، وقرر أن يرحل بعد أن ينتصر لكرامته التي أهدرتها لفترة طويلة، فصفعها على وجهها، فسقطت على الأرض من قوة الصفعة، وتلمست خدها المحمر المخدَّر، وشعرت بسخونة في خدها، لكنها استعذبتها، استعذبت الألم، ولما مسحت شفتيها رأت دماً على يدها، فشعرت بلذة غريبة في جسدها، لم تشعرها قبل تلك اللحظة، وانتقلت حرارة خدها إلى كل جسدها، وتسارع تنفُّسها، نهضت وأمسكت بيده الخشنة، وقبلتها قائلة:

- اضربني ثانية.

خاف السائس من منظر عينيها، وتراجع للخلف، فصرخت به:

- اضربني رجاءً.

لم يعلم السائس ماذا تريد بالضبط، كان وجهها غريباً، فضربها ضربة خفيفة، فصرخت:

- أقوى أيها الكلب، أقوى.

ما إن ضربها، حتى تأوهت من اللذة، وسالت

دموعها، مسحت الدم وتأملته بين أصابعها، وهجمت على السائس تقبّله بأنفاس عميقة، ومارست معه الجنس بوحشية.

ومن يومها، وهي تمارس لذة الألم مع نفسها، فتجلد ظهرها بالسوط بقوة، بعد أن تتعرى، وتشق فخذها بالموسى متأوهة، متلذذة بالألم ومنظر الدم الذي لم تتورع عن تذوُّقه، وبحثت عن هذه اللذة عند الرجال الآخرين، حتى إنها كانت تختلي بضيوف والدها في ممرات الحديقة المعتمة، لكنها لم تخبر أحداً بشكل صريح عن مرضها هذا، بل كانت أحياناً تتعمد استفزاز الرجال وإهانتهم برجولتهم، لتحصل على صفعة اللذة، وبعدها تعاشرهم بوحشية وشغف، يفزع الرجال أحياناً، دون أن يعرف الجميع مرضها.

* * *

كانت ريبكا قد سمعت بجون هوبكنز، وتابعت مغامراته النسائية وفضائحه، ولا تعلم لمَ أخذت منه موقفاً

مسبقاً، رغم أنها قرأت كل قصائده، وأحبتها منذ كانت مراهقة، وحفظت أجزاءً كبيرة منها، وعاشت بأفكار رومانسية، وتخيلته عشيقها أو زوجها، ولكنها وهي تكبر بدأت تأخذ منه موقفاً، لاستباحته النساء وللغرور الذي يصفه به الجميع، حتى تصورته وحشاً ذئبياً، أسوأ من رجال مجتمعها.

وعندما قابلته أول مرة، في وليمة العشاء التي أعدها والدها على شرفه، كانت مغلفة نفسها بصلافة ونزق لمواجهته، ورغم أن الفضول كان يؤرقها للقائه، ومعرفة هذا الرجل الأسطورة، الذي كانت تتهافت عليه النساء، ويغار منه الرجال لدرجة محاولة قتله في إحدى المبارزات، وخرج من المبارزة بجاذبية أكثر، وأكثر صلفاً وغروراً.

لكنها وجدته في ذلك المساء، رجلاً وسيماً مهذباً ولبقاً وذكياً، ولم يبدُ عليه الغرور، ولم يكن له أنياب أو مخالب، بل كان مثقفاً حقيقياً، وأنيقاً دون مبالغة، كان يشع منه شيء يبعث على الطمأنينة والثقة، بعكس ما كان

يشاع عنه، ووجدت نفسها مشغولة به، تفكّر في حديثه وابتساماته وضحكاته العذبة، وشعرت بشعور لطيف عند هذا التذكُّر، لا يشبه الرجال الآخرين المدَّعين، الغارقين بعطور قوية، والمتحلين بساعات ذهبية، ودبابيس ماسية، فقد كانت ساعته فضية ورثها عن والده، وكان يضع دبابيس من الأحجار الكريمة، أبرزها الزفير الأزرق.

كان لهدوئه تأثير الاحترام على من يجالسه، كان الاعتداد المتواضع هو السائد في سلوكه، لا الغرور المتعجرف، كان سيداً نبيلاً بجدارة، إضافة إلى أن شعره يخلو من المجون، ويمتلئ بالجماليات الرومانسية، والوصف الرقيق للمشاعر وللطبيعة.

كانت تراقبه وهو يتحدث، وتستمع إلى صوته، وعندما يلتفت إليها كانت تخفض عينيها، تشتاق إليه عندما يغيب، وتتلهف انتظاراً له صباح اليوم التالي، وتبدأ باكراً بالاهتمام بلباسها وزينتها، وتطلب من مربيتها شدّ المشد على وسطها، بأقصى ما تستطيع، كي يبدو خصرها ضامراً، كان شعورها متناقضاً، بين الرغبة في إلقاء نفسها

في أحضانه، وبين الاحتفاظ بصورتها التي رسمتها لنفسها، أو العهد الذي قطعته على نفسها، بأن لا تنساق إلى لعبة الرجال.

وعندما نسي منديله ذات زيارة، التقطته خفية ودسّته في صدرها، وظلت طوال الليل تتشمم عطره الرجولي، وتضمه إلى صدرها، وتقبّله وتخاطبه بهمس، وعندما نامت كان المنديل قرب أنفها، وفي الصباح وضعته في صندوق مجوهراتها، وقفلت عليه بالمفتاح.

* * *

كلما لاح لجون طيف ريبكا، استبعده وانشغل بلعبة الشطرنج مع مدير الإقطاعية، أو يركب حصانه ويجري به في الحقول الشاسعة، وبين الغابات بأقصى ما يستطيع الحصان من السرعة، حتى تتعرق رقبته وينفث بخاراً قوياً من منخريه.

كان غاضباً من اهتمامه غير الطبيعي بربيكا، رغم أنه لم يبيّن لها هذا الاهتمام، إلا أنه منزعج من نفسه، ولا

يعرف لهذا الاهتمام وهذا الانزعاج أي سبب، فهي فتاة نزقة، تصغره ليس بأقل من خمسة عشرة عاماً، ذات جمال عادي، وأنوثة أقل من نظيراتها اللواتي مررن بحياته.

هل لأنها ناقشته وانتقدت شعره بصراحة وجرأة؟ ولكنه لا يبحث عن المنافقين والمجاملين، إذاً ماذا؟! ثم لَمَ هو منزعج من اهتمامه بها؟ فهي ليست قاصرة، وليست زوجة صديق، ولا يوجد مانع من الاهتمام بها، إذاً لَمَ؟!

شغلت باله لا ينكر، ويتشوق لرؤيتها، كان ينتظر الصباحات كي ينطلق بحصانه إلى بيتها، كانت رؤيتها تبهجه، كان الانتشاء يشبه ولادة قصيدة في صدره، أوبيت شعر يكاد يُكتب، حالة من المتعة الشعورية والروحية، حالة من الانتظار المبهج، والبهجة المنتظرة.

كان قلقه متستراً خلف عباءة الابتسام والوجوم اللحظيين، قلق من التفسير، الاعتراف، والهروب إلى المؤجل الغامض، هروب إلى حموضة عرق حصانه، الذي كان ينهكه خبباً، إلى الأين، خلف الضباب، ووراء الأفق المحترق باحتضار الشمس.

عرف مدير مزرعته، أن سيده عائم الذهن، فلأيام قال له:

- كش ملك.

وشعر بعدم الرضى لانتصاره، كمن ينتصر على شخص مريض، أو مثخن بالجراح، لكنه عندما كان ينظر إلى ملامح سيده الجادّة كراهب دير، كان يحجم عن سؤاله:

- ما بك ياسيدي؟

* * *

لحظة الاحتراق

قال السير بيتر سلفرثورن لابنته:

- ربيكا، هل تستطيعين مرافقة السيد هوبكنز، إلى حقول التفاح؟

ثم ملتفتاً إلى جون:

- أرجو معذرتي ياسيد هوبكنز، فأنا متعب هذا اليوم.

انحنى جون احتراماً، ثم قال:

- أتمنى لك صحة أفضل، رجاءً استرح وانتبه لنفسك.

كان قلب جون يرقص، وكأنما لا سبب لذلك، أما ربيكا التي فرحت فرحاً طفولياً، قالت:

- حالاً، سأغير ملابسي بسرعة.

وركضت تعدو على السلّم الماهوجني، وسمعت جون يقول:

- خذي وقتك.

وهو يعبث بطرف قبعته.

* * *

كان خبب خيليهما متناغماً، كنبض القلب الفرح، وظلا صامتين خجلين من فعل لم يقع، كان وجه ربيكا مصطبغاً بحمرة وردية، أهو بسبب جري الفرس، أم لمشاعر سرّية، كان جون يلتفت إليها بين فترة وأخرى، وكأنه يريد التأكد من حقيقة وجودها، التفتت ربيكا إليه بصوت يهتز مع اهتزاز الفرس:

- ما رأيك بأن أريك مكاني السرّي؟

أجاب فرحاً لتوقُّع جميل:

- حسناً.

فانعطفت بفرسها، ولكزتها بكعبيها فانطلقت بجري سريع، وانطلق شعرها الأشقر مع الريح، ثبت هوبكنز قبعته، ثم لكز حصانه وتبعها جرياً، وظل يتبع بعينيه خصرها الضامر على ظهر الفرس، وبعد دقائق توقفت عند شجرة عجوز وضخمة جداً، قد يكون عمرها مئة عام أو

أكثر، ثم ترجلت عن الفرس برشاقة، وتبعها جون، قالت لاهثة وهي تشير إلى فتحة كبيرة في جذع الشجرة.

- هذا هو مكاني السري.

أدخلت جسمها الصغير في الفتحة، وهي تستطرد:

- كنت أختبئ هنا، وأستمتع ببحثهم القلق عنّي، اكتشفت هذا المخبأ في سنّ التاسعة، وكلما أردت الاختلاء بنفسي، آتي إلى مكاني السري.

ربط جون لجام الحصانين بأحد الأغصان، خرجت ربيكا، وهي ما زالت تكمل:

- وهنا قرأت كل أشعارك.

ظلا متقابلين، يلتهمان تقاطيع وجهيهما، كانت النسمات تعبث بشعر ربيكا، وخلع جون قبعته دون أن ترفّ عيناه، واقترب منها، ووضع كفه على خدها، وسحبها برفق، فأغمضت عينيها غائبة عن الوعي، محمرة الوجنتين، والتصقت شفاهما بقبلة طويلة، وكأن كل شيء صمت حولهما، صوت الطبيعة، تمايل الشجر، زقزقة العصافير، وحتى نهيق حمار بعيد، لا يوجد في لحظة

الاحتراق هذه، إلا صخب خلايا جسديهما، وجري الدماء في عروقهما، وصوت مضختي القلبين.

سالت دمعة ربيكا من عينيها المغمضتين، وبللت خد جون، وامتزجت رائحة شعرها بروائح الحب والطبيعة، كانت اللحظة الأولى، والخبرة هي الأولى، والاحتراق هو الأول.

كانت تأريخاً لولادة وخلق، كانت لحظة صمت العقلين، وصخب المشاعر.

وضعت ربيكا رأسها على صدر جون، مبللة قميصه بدموعها، ثم قالت بصوت باكٍ:

- أحبك.

صمت جون مذعوراً من الكلمة، رغم أنه سمعها مئات المرات في السابق، إلا أن وقعها الآن جعله يجفل، كما يجفل الحصان من ثعبان سامّ، كررت ربيكا:

- أحبك.

* * *

بالنسبة لها

كانت قبلته حلماً قديماً من أحلام المراهقة الأولى، فقد أحبته قبل أن تراه، أحبته منذ الكلمة الأولى من أول قصيدة قرأتها له، كانت تتلمس اسمه على الورق وتقبله، كانت تحضن ديوانه الذي تمزقت أطرافه، وينام في حضنها، وزادت طلقة المبارزة التي أصابت ذراعه، من إيمانها به كنبي.

كانت تتابع أخباره، وكل الإشاعات التي تنسج حوله، وكل المغامرات النسوية، التي غارت منها، حتى إنها تمنت في يوم ما خنق إحدى السيدات التي أثير لغط عنها هي وجون، رأتها أثناء زيارة لبيت عمتها، وغارت أكثر لأن السيدة كانت في غاية الجمال، أجمل منها بكثير.

كان تقبيل جون وحضنه، أمنية مستحيلة، وها هي تتحقق في أول اختلاء بينهما، وكأنها كانت تُعدّ وتخطط

لذلك، كانت صورته في الحقيقة، أجمل من الخيال، وكان تأثير سحره أكبر مما توقعت.

أقسمت أن تتوقف عن علاقاتها العابرة مع الرجال، بعد أن أتى فارسها المنتظر، لن تمنح روحها لأحد غيره، ستفلت من بين أصابعها أهداب الغواية، إلى غير رجعة، وستخاصم شيطانها، ها قد أتى الحب الذي لا حب قبله أو بعده، ها قد بدأت حياة السعادة والفناء الأبدي على صدر الحبيب.

* * *

بالنسبة إليه

عندما قالت له أحبك، شعر بجزع قاتم في صدره، هذه الكلمة التي كان يهرب منها على حصانه، كلمة من بضعة أحرف، قد لا يكون لها تأثير غير تأثير المناسبة، وقد يكون تأثيرها قليلاً من الفخر بالنفس، وقد يكون تأثيرها تأثير السحر، من دون قدور وبخار وأرجل ضفادع، كلمة قد تهزم الأبطال، وتطعنهم كالرمح في الخاصرة.

لم يخش يوماً من سماعها، كخشيته هذه المرة، وكأن دمه جرى عكسياً، أربكت هدوءه، وشرخت ثقته الكبيرة في نفسه، صهرت اعتداده وأحالته بخاراً، رجّته كما ترجّ شجرة جوز الهند، فتسقط ثمارها واحدة تلو الأخرى على الأرض، لم يكن يظن أن هذه الكلمة / الفعل، والتي كان يسخر منها، ستسخر منه في المقابل.

كيف وهو الخبير بالتقبيل، أن يسقط صريع قبلة من فتاة؟! كان يضطر إلى إسناد النساء كي لا يسقطن بعد تقبيلهن، والآن يحتاج إلى من يسنده، وكأنه قلعة تداعت بقصف المنجنيق، كأن فخاً نصب له في شفتي هذه الفتاة، شفتان تواطأتا على هزيمته، وهو الذي لم يهزم في حضرة أنثى، كنَّ يركعن على ركبهن، يتذللن له، يتشبثن ببنطاله كي لا يتركهن، يمنحنه كلّهن، يتباركن بسريره الواسع، وينتشين من رائحة النبيذ والتبغ في فمه.

والآن يسقط هذا الصنم، أمام قبلة فتاة! هل سمح ورغب في ذلك؟ أم أن حوائط قلاعه تقادمت، وأصابتها هشاشة الزمن، أم أن هذه الفتاة مرسومة له كنبوءة عرّاف داعر.

* * *

ركض السائس باتجاهه، وأمسك بعِنان الحصان، وترجل جون من على صهوته، وفي تلك الليلة، ضحك ضحكته الماجنة، وقال لمدير مزرعته كش ملك مرتين في لعبة الشطرنج.

التاريخ صفر

- "ألو، صباح الخير".

كان صوتها ناعساً، بإغواء عفوي:

- "صباح النور، صاحية مبكر"!

تمددت شبه عارية تحت اللحاف، وردت بنفس الصوت:

- "حبيت إسمع صوتك على الريق".

وكأنه يكمل حلماً جميلاً:

- "صوتك حلو على الصبح".

ضحكت بزفرات من أنفها:

- "يلا قوم بسرعة، أبي أشوفك".

قال من خلال تثاؤبه:

- "آخذ شور وأكلمك".

* * *

كان الصباح لا يشبه الصباحات، كان سالم وشيخة ثملين بقبلة البارحة، مفعمين بشعور جديد، يملأهما بطاقة إيجابية، ضغطت شيخة على زرّ التحكُّم ورقصت مع موسيقى الهارد روك التي يبثها التلفزيون، وصفَّر سالم متجهاً إلى الحمّام، بعد أن شغل ال ipod ليستمع إلى أغنية "الحلوة حياتي" لعبد الحليم حافظ.

* * *

كان جرس الغرفة يرن بإلحاح، لفّ الفوطة حول وسطه وفتح الباب، كانت هي، انقضّت على شفتيه وهي بروب الحمّام، قبّلته في كل مكان قائلة:

- "ولهت عليك وايد".

ضمها إلى صدره العاري، وقال بصوت عميق:

- "وأنا بعد، ولهت عليك وايد، كأني ما شفتك من سنين".

لا يعلمان كم مر من الوقت وهما متلاصقان، شعرت شيخة بشعر صدره على خدها، وشعر سالم بخدها الناعم وشعرها المبلل على صدره، وضع أصابعه تحت ذقنها

ورفع وجهها، وقبّل شفتيها وسمع أنة خفيفة من خلف الشفتين، أزاح الروب عن جسدها العاري، وسقطت الفوطة عن وسطه.

كانت حمّى لحواس الجسدين، امتزجا وانصهرا وتأججا بلهب الحب، وغدا اللمس الرقيق صلاة راهب، والقبلات صدى تراتيل في معبد، والتأوهات شهب النشوة، وحشد الغيوم لصرخة المخاض، بين ثورة الإعصار وهدأته مسافات الاشتهاء وصهيل البروق وسخاء المطر.

لا يعلمان كم مرّ من الوقت وهما صامتان، فبالنسبة لهما الآن قد بدأ التاريخ، من الصفر، كان رأسها على صدره اللاهث، وأصابعه مغروسة في شعرها، وعندما هدأت العاصفة، وفي لحظة التقاط الأنفاس قالت له:

- "أحبك".

عاد نبض قلبه للتسارع، قال:

- "نعم"؟

- "أحبك، وما أدري ليش، أحس بغرابة لأني

عرفتك من يومين بس، شعور غريب سالم أول مرة في حياتي أحسه، أكو شي مو طبيعي".

تنهد سالم ثم قال:

- "أفهمك".

* * *

صمت سالم يفكر في جون وربيكا، وهذه الدهشة، بهذا التماثل واستعادة التاريخ، أيعقل أن يكون هو بالفعل جون، وتكون هي ربيكا؟! وهذه التفاصيل المذهلة ليست وهماً أو حياكة خيال، فهل يعيش الإنسان حياته مرتين؟ وهل هذا ما يسمى بإعادة التاريخ لنفسه؟

كان من الصعب عليه تفسير مشاعره، كان من الصعب عليه التصريح بما يعرف، كان الاضطراب والتشوش في ذهنه، كخشخشة مذياع بعيد عن موجته، غارق في لجة الحيرة.

هذه المرأة أحالته إنسياً، عارياً متجرداً من أسواره، متجرداً من نذوره التي ارتداها لسنين طويلة، قبل أن يلتقيها كالقضاء الصاعق، أهو انتقام القدَر من آثام سأمه؟

من أوثان حريته؟ من منجل حصاده للنساء؟ الذي أعمله في كل المواسم، أهي دعوة إخوته والرجال الذين يغارون منه عليه؟ ولبّاها القدر تواطؤاً معهم؟

يحبها، ولا يعلم كيف ومتى ولماذا، فقط يحبها كتسليم المؤمن، بانسياق المسرنم، كل شيء معها مختلف عن نساء العالم اللواتي حرثهن، واحترقن في أتون حبه، وفي نفس الوقت عادية بجمالها، حد القول إنها ليست من النوع الذي يفضله، لكن قبلتها مسكرة حتى الثمالة، ولجسدها روعة السكين على الوريد، استشهد مرتجاً مع شهقة المنتهى، بينما كانت عيناها كعيني الشاة الذبيحة.

تذكر أنه شاهد وشماً آخر أسفل ظهرها، كان على شكل سهم متجه إلى أسفل، وفوقه كلمة come on[11]، كيف يحبها وهو يكره رؤية الأوشام على أجساد النساء؟! ويكره الأقراط مغروسة في لحمهن؟! وهي تضع حلقة بأكثر الأماكن حساسية في جسدها.

* * *

(11) تعال.

كررت:

- "صدقني، ما أدري ليش بس أحبك.. أدري كأنه شي مو منطقي، لكنه شعور غصب عني".

قال لها بصوت جادّ:

- "أدري ليش.. كنا مع بعض في الحياة السابقة".

ضحكت من أنفها، وقبّلت صدره قائلة:

- "أنا وين وأنت وين".

بعد لحظات صمت قال لها:

- "أحبك".

ضمته مغرورقة العينين، وظلاّ صامتين كأنهما لا يريدان تعكير صفو اللحظة.

* * *

لم يسألها كيف فقدت بكارتها، ربما لم يأت الأوان، ربما بعد سكون صخب الدواخل، لكنها تتذكر جيداً اللحظة الدامية، لحظة انفضاض البراءة.

كانت في الثاني ثانوي، بالمدرسة الأمريكية، ولم تكن قد بلغت السابعة عشرة بعد، وكانت بعض زميلاتها

الأمريكيات والأوربيات، يسخرن منها ومن زميلاتها الكويتييات، على اعتبار أنهن عذراوات متخلفات، ينفر منهن الصبيان، ويفتخرن بانفضاض بكارتهن، ويطلقن عليهن لقب liz أي شاذات جنسياً.

وكان الأمر مؤرقا لشيخة وزميلاتها، حيث تقاليد المجتمع والشرع، تقول عكس ذلك، لكن الصحيح أنهن حتى هذه السن لم يقترب منهن شاب، ولذا اتفقن على فض بكاراتهن.

وفي ذلك اليوم، اختلت شيخة مع نفسها في الحمّام، وضغت بإصبعها داخل مهبلها بقوة، واستغرقها الأمر أكثر من ساعة، كي تصرخ:

- "آآآي".

ثم تدفق الدم القاني.

وفي اليوم التالي، التقت بزميلتيها مبتسمة، كن يمشين فاتحات أرجلهن، وضحكن على أنفسهن، لكنهن كنَّ فخورات، وبدأن على الفور بنشر الخبر، وأصبحت ممارسة الجنس مع زملائهن طقساً يومياً، في الفصول

والملاعب والمختبرات العلمية، ولم تستطع زميلاتهن الغربيات معايرتهن بالتخلف بعد ذلك.

لكنها لم تمارس الجنس برومانسية وحب، مثلما حدث مع سالم، فقد كانت تمارس الجنس بوحشية وغريزية وعنف، كانت تجرح ظهور الرجال بأظافرها، وتستمتع بآلام جسدها، وتطلب من الرجال ضربها، وأحياناً تطلب منهم تقييدها وجلدها، وكانت أحياناً تصل إلى ذروة اللذة وهي تجلد، كما حدث معها عندما كانت ترسم أوشامها، فكلما انغرست الأبرة في جلدها شعرت بلذة وحشية.

لكنها معه كانت أنثى تذوب حباً، مستمتعةً بإيقاعه البطيء، كانت الممارسة معه شوقاً مستمراً، وعبادة في محراب البهاء، وكأنه أعاد تخلُّقها، وكأنه مايكل أنجلو عندما نحت تمثال داود، بإزميله وأنامله خلق اكتمال الروعة، مرة وإلى الأبد.

جاء سالم لينتشلها من عابر الجنس، من روائح العرق في أجساد العابرين، ولهاث الكلاب من أفواههم، من

الشعور برغبة البصق عليهم بعد الانتهاء، من الإغواء الرخيص، والشهوة المبتذلة، غير المحترمة.

في هذا الصباح شعرت بتطهير وهي تنصهر بين ذراعيه، شعرت بالأنثى الكامنة في قعرها، وعندما قالت له:

- "أحبك".

لم تكن ك:

- "أحبك".

التي قالتها لكل الرجال، فتلك كانت لزوم الجنس، أو إنها كانت لا تفرق بين الحقيقة والادعاء، أو إنها ببساطة كانت تكذب على نفسها كذباً عارياً، فالمهم هو الامتلاك، مهما كان الثمن، جسدها، مشاعرها، تعبيراتها.

لم تفكر في كنه العلاقة مع سالم، فقط شعرت بها دون منطق، دون مسوغ، ولعل ذلك كان سرّ الجمال فيها، فهي لم تسعَ إليها، لكنها تغلغلت عبر مسامها، بهدوء رائحة البخور، علاقة مشعة بنور وطاقة كواكب، لا تُرى بالعين المجردة.

كان الذوبان ولهاً في أحضانه، لا يشبه إلا شبق

الانتحار طوعاً في لجة الرحيق، سالم هو البداية والنهاية:

- "سالم".
- "نعم".
- "أحبك وايد".
- "وأنا بعد".

* * *

- صحيح، ماذا يحصل؟!

تساءل سالم مع نفسه دون تركيز، ثم ترك نفسه مع انهمار الشعور من روحه، وأغمض عينيه على رائحة الحب.

روائح روما

لطالما أذكت مشاعرها روائح طبخ والدتها، فمنذ الصغر تذكر روائح الثوم والبصل والخضار، كانت أواني والدتها تقرقع في المطبخ، باعثة أبخرة ذات نكهة حِرِّيفة، وكلما شمّت هذه الروائح تقول لنفسها:

- روما.

أطلّت والدتها حاشرة شحمها في فستان ضيق من باب المطبخ، وقالت بصوت عال:

- ألن تقولي ما بك؟

ردت جيوفانا الخارجة من مسرح سالم بتذمر:

- ماما.. قلت لك مراراً، لا شيء فقط أشعر بتوعُّك.

تذوقت أمها المرق من طرف الملعقة الخشبية قبل أن تقول:

- هل الرجل العربي هو السبب؟

أفلتت جيوفانا زفرة ثم قالت:

- ماما رجاءً.

منذ أن رجعت جيوفانا من فلورنسا، وهي تحدّق بالهاتف علّ سالم يتصل، وتسمع صوته، وشعرت برغبة في البكاء، وجاء صوت أمها:

- قلت لك، هذا عربي متخلف، كل ما يريده هو الجنس.

لم تردّ على والدتها، ولكنها حنقت على سالم، ثم ضمته بخيالها دامعة، لم تعرف رجلاً مثله قط، غاية في النبل والاحترام، كانت لمساته رقيقة لا تخلو من رجولة، كانت قبلاته تعلن عن حميمية شفتي طفل تُطبقان على حلمة ثدي أمه، لم تكن ترغب في حبه، خاصة وأنه صرح لها بعدم رغبته في وشائج، كان كالطفل الشقي، العنيد في رفضه لحكمة الأهل.

ظلت تحدّق إلى شاشة الهاتف النقال، عل رقمه يبرق خلالها بومضات محببة، لم تكن تعرف كنه شعورها، أهو الحب، أهو الشوق، أم الغَيرة، فقط شعرت بألم في روحها.

لكن هذا الألم لن يعيده إليها، فما تعيش به هو

الوهم واللاّعقلانية، فإذا كانت تريد الاستمرار في حياتها، وتحقيق طموحاتها، فلا بد من القياس الواقعي، العقلاني للأمور، وإن كانت تحبه حقيقة، فيجب أن تمنحه ما يحب، حتى وإن كان ذلك يعني الفراق الأبدي.

أخذت نفَساً عميقاً، نهضت واتجهت إلى الحمّام، وصوت والدتها يتبعها:

- أين؟

- سآخذ دشاً، وأذهب إلى عملي، فرزقي ينتظرني.

كانت على هامش حياته، وستظل على هذا الهامش، فلن يتغير شيء، لكن حياتها ليست هامشية، بل هامة لها، وستمضي قدماً في هذه الحياة، دون الالتفات إلى الخلف.

الحب يعلن عن نفسه

أصبح اللقاء روتيناً يومياً، وفي نفس المكان، تحت الشجرة العجوز، كان جون وربيكا يقضيان الساعات في عناق وقبل، في ظل الشجرة، حتى توّج هذا العناق إلى اتصال حميم، متناغم مع إيقاع الطبيعة حولهما، بل كان اندماجاً مع بداءة الخضار والزرقة، بزهو العصافير والسناجب، عندما تأتي مواسم التزاوج.

كانت رائحة رقبتها في أنفه مسكرة، كانت مستسلمة لفعل الحب، وهو يغوص عميقاً في وجدانها، كانت البداية غيبوبة، والدقائق التي تلتها أكثر غياباً، والنهاية رعشة الأرض المعشوشبة، عندما يبللها المطر، كشهقة الولادة والموت معاً، حيث لا يعود الكائن لطبيعته بعدها، ثورة بركان تبعثر حممه، لتخصب الأرض بعدها.

* * *

في هذا اليوم، حكت له عن علاقاتها السابقة، وعن خبرتها الأولى مع سائس الخيل، وعن حبها له قبل أن تراه، لكنها خشيت أن تفصح له عن تلذذها بالعنف، وكيف كانت تعود للبيت متورمة أو دامية، وكانت الحجة دائماً سقوطها عن الفرس.

* * *

مرت ربيكا بتجارب، قد يكون بعضها خطيراً، سمعت من والدها عن اللورد وليام دكنسن، الإقطاعي الذي يسكن على بعد عشرين كليومتراً من مزرعتهم، قال والدها:

- هذا الرجل مجنون، مهووس، عنيف على خدمه وفلاحيه، يقال إنه ضرب فلاحاً بعصاً غليظة، حتى أشرف على الموت، ولم يهدأ المجنون من ثورته حتى رأى الدماء تغطي وجه الفلاح، أظنه سادياً يحب أن يمارس العنف والتعذيب على الآخرين.

وعندما سأله ابنه:

- ما معنى سادي يا أبي؟

ردّ، بينما كانت ربيكا منصتة بانتباه:

- السادي هو الذي يتلذذ بالعنف والدم، عكس المازوكي الذي يتلذذ بممارسة العنف عليه.

ثم أكمل مخاطباً زوجته:

- ويقال إنه قتل مومساً في فراشه، ولذا تتجنبه المومسات لعنفه معهن.

قالت زوجته:

- يقال إن زوجته هجرته لنفس السبب، وحكم القاضي بطلاقها منه.

ظلت ربيكا تفكر في وليام، وبما ستحصله من لذة معه، فهو من يستطيع فهم حاجتها، وتلبية رغبتها المجنونة، شعرت بإثارة، فانسحبت إلى غرفتها وأقفلت الباب عليها، خلعت ملابسها وتناولت المشط ذا القاعدة الخشبية العريضة، وظلت تضرب فخذيها وردفيها، حتى الاحمرار، ثم مررت أناملها على المكان الحارق، وشعرت بلذة حسية.

فكرت كثيراً في لقائه، ولكنها خشيت تعريض نفسها للإهانة، وخشيت من عواقب الفعل العنيف، فهي لم تجرب غير صفعات وركلات، لكن مع هذا الرجل، قد

يكون الأمر خطيراً، فكما وصفه والدها، هو رجل مهووس أو مجنون وسادي، ولا تعرف حدود العنف عنده، رغم أن الفكرة مغرية للغاية.

وبعد أكثر من شهر، كانت تتجول على فرسها، واقتربت من أرض الرجل، وربما تعمدت هذا الاتجاه، وقفت مترددة لفترة، ثم اتجهت صوب المنزل، وفي الطريق وجدت رجلاً في أواخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات، على صهوة جواد، يعتمر قبعة من القش، وهو يتابع عمل الفلاحين، الذين كانوا يقلبون الأرض، تمهيداً لزراعتها، اقتربت وهي وجلة، لا تعرف ماذا تقول، فبادرها الرجل:

- كيف أخدمك يا سيدتي؟

قالت مفتعلة كذبة:

- يبدو أنني أضعت الطريق يا سيدي، وقادتني خطوات الفرس إلى أرضكم، وأرجو ألا أكون قد انتهكت خصوصيتكم.

ردّ مبتسماً:

- أبداً، على الرحب والسعة.

ثم مستطرداً:

- اتبعيني إلى البيت، كي تستريحي من عناء الطريق.

تبعته إلى البيت الضخم، ونادى بصوت غاضب الخادمة، وطلب منها مرافقتها إلى الحمّام، وطلب من الأخرى تجهيز عصير الليمون، وجلس ينتظرها على شرفة المنزل، وعندما أتت نهض بتهذيب، وأجلسها بقربه، وقال:

- حسناً، من أين أتيت، وكيف أصبح لنا شرف زيارتك لنا؟

رشفت من عصير الليمون لتروي عطشها بعد هذه الرحلة الطويلة، وأجابت:

- أنا ربيكا ابنة السير بيتر سلفرثورن، انحرفت عن طريق جولاتي اليومية، لاكتشاف الجديد، فوجدت نفسي في أرضكم.

قال لها وهو يحرك الهواء على وجهه، بقبعة القش:

- نعم أعرف والدك، التقيته مرتين، إنه رجل طيب.

وظلا يدردشان، بينما ظلت ربيكا تقرأ ملامح وجهه، ويديه ولغة جسده، وتخيلته يضربها، ويعصرها بين هاتين

اليدين الضخمتين، لكنها بالطبع لم تعرف كيف تعرض نفسها عليه، وعندما تأخر الوقت استأذنت، فأوصى أحد الخدم بمرافقتها إلى الطريق الرئيسي، ووعدته بزيارة أخرى.

وتكررت الزيارات، كل بضعة أيام، دون أن تخبر أهلها بهذه الزيارات، وكان لابد من محفز أو شيء يلفت انتباه لورد وليام، وفي احدى الزيارات، تظاهرت بأنها تقطع التفاحة بالسكين، وعلى غفلة منه جرحت سبابتها، وندت منها آهه:

- آه.

التفت وليام، ورأى خيطاً من الدم يسيل من الجرح، فتغير شكل عينيه ووجنتيه، وركع دون تفكير ولعق الدم من إصبعها، فصدرت منها تأوهات لذة، فنظر وليام في عينيها، وشاهد الشبق الطافح من مقلتيها، ورأى أنفاسها تضغط على مشد صدرها في موج يعلو ويهبط، وظلاّ يتبادلان التحديق، وكأنما يتحدثان بلغة لا أحد يفهمها غيرهم.

وقف ويليام، وخطا بضع خطوات، ثم التفت إلى

ريبكا فنهضت، وتبعته كالمنوّمة، وفي مخدعه، أظهرا كل فنون الوحشية، بادرت بها ريبكا بصفعة تستنهض جنونه، وتوصل له رسالة لا لبس فيها، أنها تريد ما يريده، ومزقت قميصه كلبؤة شبقة، وتحول اللورد إلى حيوان ضارٍ، وطير كاسر، كان بعيداً عن الممارسة الإنسانية أو الحب، ردّ الصفعة بصفعة أقوى، جعلتها تصرخ لذة حتى كادت أن تصل لذروتها، وعضها في كل مكان من جسدها، وأسال دماءها التي لطخت أسنانه وشفتيه وجسده، وتركت بقعاً على أغطية السرير، وضغط بكفه على رقبتها حتى ازرقت شفتاها، وخرج لسانها وجحظت عيناها، ولم تبدِ ريبكا مقاومة تذكر، وكأنها تريد الموت في تلك اللحظة، ولم يرفع كفه عنها حتى أفرغ غضبه الشاذ.

وعندما هدأ جنونهما، وأفرغا مرضيهما، كانت ريبكا في حالة يرثى لها، فقد تورم وجهها، وملأت الجراح والبقع الداكنة بدنها، ظلت تسعل واضعة يدها على رقبتها، قاطعة المسافة بين حدود الخطر، والنشوة المختلفة، غير الطبيعية.

وظلت لفترة تلف وشاحاً حول رقبتها، كي تخفي آثار الخنق، بعد أن أبلغت والدتها، بأنها سقطت عن الفرس، لكن والدتها التي بدأت تتوجس شراً من سلوكها الغامض، لم تفتح الموضوع مع زوجها.

بعد هذه الحادثة التي كادت أن تودي بحياتها، انقطعت عن زياراتها للورد وليام دكنسن، رغم أنها تجربة، لبت الكثير من شغفها وفضولها.

* * *

ورغم أن جون قد لاحظ ندوباً على فخذيها، لكنه لم يسألها، ولم يجد للأمر أهمية، فقد تكون ندوب شقاوة الطفولة، بل ما زالت تحمل في داخلها طفلة متمردة، فعندما سألها:

- ألا تخشين من الفضيحة، مع كل هذه العلاقات؟ فليس كل الرجال جنتلمن، ليحافظوا على شرفك.

ضحكت بصوت عال، لا يخلو من رنة سخرية:

- أي شرف تتحدث عنه، نحن نظهر تحضُّرنا ولياقتنا

في الشارع، وفي صالونات الرقص، وعلى مآدب العشاء، لكننا نمارس الجنس بالخفاء، فكل الأزواج يخونون زوجاتهم مع زوجات الآخرين، نحن البريطانيين من أكثر الشعوب وحشية وتخلفاً، نمارس القهر على الشعوب الأخرى، بحجة تخلُّفهم وتحضُّرنا، ونمارس التدمير، بحجة نقل التقدم إلى البلدان الأخرى، وفي داخلنا ينخرنا الفساد والنفاق، فكل ليدي وجنتلمان، يحملان شخصيتين، صورة لامعة في الخارج، وأخرى قاتمة في السر، والمشكلة أننا نعرف ذلك عن أنفسنا، لكننا نظل نعيش في كذبة عارية

يختلف المجد البريطاني في الأسرَّة، يتحول إلى غزوات مجنونة وحشية، ويتحول التهذيب إلى بذاءة وقذارة في المسامع وفي المخادع، وعندما يعود الأزواج من أسرّة عشيقاتهن، يغضون النظر عن آثار خيانة زوجاتهم على أغطية الحرير، وكأنه اتفاق غير معلن على الإباحية، هذه الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، هي أقل من الشعوب البدائية، فعلى الأقل هناك يمارسون حقيقتهم،

دون خداع أو ادّعاء، وإن أردت الحقيقة، أتمنى لو كنت أعيش في أدغال أفريقيا، كي أكون أنا على حقيقتي.

* * *

رغم أن رأيها يحمل بعض الصواب، إلا أنه لا يود أن يسمعه من فتاة، لأنه يشوه صورة النقاء والرقة اللتين تمثلهما المرأة، حتى وإن مارست الخيانة.

صدمته آراؤها وجرأتها في قول مالا يقال، وشعر أنه كان مثل غيره، يهرب من الحقيقة، ولا يريدها أن تخرج من متحف ذاكرته، وتذكر أنه انتقد النفاق الاجتماعي وكرهه، لكنه لم يكن مستعداً لسماعه بهذا الصوت العالي، ومن فتاة أحبها ولأول مرة في حياته، هذا الحب الذي أعلن عن نفسه، عن انتصاره على قلبه المحصَّن.

هذا الحب الذي لم يجد له مسوغاً، لكن تأثيره طاغ رغماً عنه، لم يُخْفِ قلقه وتساءل أكثر من مرة إن كان يحبها حقيقة، لكن كل تساؤل من هذا النوع كان كتثبيت للحب، وغور أعمق له في وجدانه.

ذاكرة الخلايا

انطلقا شمالاً باتجاه فيرونا، عابرين سهول وتلال رومانا البهيجة، شبكت شيخة ذراعيها حول بطن سالم، ملتصقة بظهره، بينما أطبق على مقود الدراجة النارية بأصابعه، وفي الطريق مرت بهما أشجار ضخمة، وسهول منبسطة خضراء، وجسور خشبية ضيقة، تعبر جداول ماء.

أصبح سالم متعلقاً بشغف بماضيه، وأصبحت العودة اليومية إلى جون وربيكا، أشبه بالعودة لإكمال فصول رواية ممتعة، وأعطاه عدم إيمان شيخة بإمكانية العودة للماضي، مساحة سرّية لاكتشاف أصل شخصيتها، وما جلبته معها في خلايا الذاكرة، من تكوين شخصي، ذهني وسلوكي، واستشراف واستبصار لما يمكن أن يحدث، وإن كان بقليل من الاختلاف في التفاصيل.

أذهله ما عاشه معها قبل ما يقرب من المئتي سنة، كان كمن ينسج قصة خيالية في ذهنه، لكن لو كانت خيالاً

أو أحلام يقظة، لاختار شخصية أخرى، تختلف عن شخصية ربيكا المرضية، لكن لا بد أن يكون ذلك واقعاً، حدث بالفعل، لأنه لم يتحكّم في سير الحكاية، أو رسم الشخصية كما يود أو يتمنى، بل ترك عقله الباطن ينساق متذكراً باكتشاف، كمن يشاهد فيلماً سينمائياً على شاشة كبيرة، يعيش هو بنفسه مع الأحداث، وأحياناً كثيرة يشعر بالمشاعر والأحاسيس، التي تنتاب جون في حياته، وهنا مصدر المتعة الغامضة، والغموض الممتع.

في مغامراته النسائية، التي استغرقت منه سنوات طويلة، لم يقترب من نساء يمتعهن العنف أو الشذوذ، فإذا كان في الأساس يقرف من النساء المبالغات بالتبرج، ويحس برغبة الاستفراغ من روائح المكياج القوية، والعطور الرخيصة النفاذة، فبالتأكيد هو لا يتقبل ما ينتهك الأنوثة شكلاً ومضموناً.

إذاً، ما الحكمة من علاقة جارفة، غير متسقة مع تكوينه، وبنائه الذهني والشعوري؟ وما الحكمة من تكررها في هذه الحياة، وربما في الحياة القادمة؟ أليست التجارب السلبية والمؤلمة التي نمرّ بها، فرصة للتعلم وعدم

التكرار؟ وهل الشقاء مثلاً، سمة تلازم بعض الناس في كل حيواتهم، دون تعويض؟ ما الحكمة إذاً من إعادة التاريخ لنفسه؟

وهل نستطيع تغيير ما في الماضي، كي يتغير الحاضر؟ أم العكس، نستطيع تصحيح آلام وسلبيات الماضي، عند ادراكنا لها في الحاضر.

ضجيج من الأسئلة المحيِّرة، عصف برأسه دون إجابات مشبعة، لكنه عندما يتوقف أمام علاقته بشيخة، يجد بداخله حباً حقيقياً غير طارئ، وهو إنسان واقعي، لا يؤمن بالحب من أول نظرة، لكنه يؤمن بالتجاذب من أول مرة، وبيد البشر أن يبنوا عليه حباً، أو يتجاهلوه حتى يتبدد ويتلاشى، لا يؤمن بما يقال "فولة انقسمت قسمين"، أو بما يعتقد بعض المراهقين، "لا أستطيع العيش دونها"، هو عقلاني، يعرف كيف يوقع الإنسان نفسه في حالة حب، وكيف ينجو بنفسه، ولذا ظل طوال حياته، يستمتع بما تجود عليه مشاعره، دون استسلام للإيحاء والضرورة الافتراضية للعبودية الشعورية، حذِر من شباك وفخاخ الحب.

والآن، لا يُعرف لشعوره منطق، وكأنه مرغم، دون أدنى تحكُّم به، وعندما يفكر في ذلك يشعر أحياناً بغضب، على نفسه، على شيخة، على حياته السابقة، التي أخرجته من جلده رغم أنفه.

* * *

كان سعيداً بكونه وغداً وسيماً، يجرح ولا ينجرح، منطلقاً بحرية دون عوائق، كما ينطلق بدراجته النارية على طريق سريع، لا إشارات ضوئية تبطئ من مسيرته، ولا انعطافات تربك خط سيره، فقط انطلاق سلس، والهدف ليس الوصول، فالانطلاق بحدِّ ذاته هو الهدف.

لم يلتفت إلى إلحاح والدته بضرورة الزواج:

- "لقينا لك بنية حلال، خريجة أمريكا".

فيرد بإصرار:

- "يما أنت تعرفين رأيي بهالموضوع، فلا تتعبين نفسك".

بتوسّل:

- "بس يما إنت كبرت، وأنا بشوف عيالك".

يرد دون تردد:

- "عندك عيال إخواني، شكثرهم ما شاء الله".

ثم تأتيه من مدخل آخر:

- "الناس تتكلم، يقولون يمكن ولدك مو رجال، وما يحب الحريم".

فكان يقهقه بصخب، وبوده أن يحكي لأمه مغامراته الثرية مع النساء، وبدلاً من ذلك:

- "ما عليّ من الناس، هم راح يتكلمون في كل الأحوال، النميمة هي كل ثروتهم في الدنيا".

ولم يتأثر بتلميحات إخوته:

- "كل ما كبر دبر.. لي متى بيظل متصابي، يلبس جينز، ويثرثر مع بنات خلق الله"؟!

حتى ألحت والدته على والدتها، التي تعلم بتأثيرها عليه، بإقناعه بالزواج.

* * *

جدّة سالم كبيرة السن، تبلغ التسعين من عمرها، فهي في الواقع جدّة لأجداد، امرأة ذات نفوذ وسطوة، كانت

في شبابها امرأة قوية، تزوجت مرتين وتطلقت مرتين، لم يحتملها زوجاها لقوّتها، ولأنها أنجبت منهما ذكوراً وإناثاً، وهؤلاء تزوجوا وأنجبوا العديد من البنات والصبيان، والحفيدات والأحفاد، الذين تزوجوا وأنجبوا، فأصبحت جدّة لأجداد وجدات.

وجدة سالم حاضرة الذهن، وذاكرتها قوية رغم أنها أصبحت تجلس على كرسي مدولب، وهذا الوضع زاد من عصبيتها، وكان الجميع يخشونها، ويخافون من سلاطة لسانها.

وكان سالم يزورها في المناسبات، وفي غير المناسبات، وأبناؤها وبناتها والأحفاد يزورونها في الأعياد والمناسبات، لكنها لم تكن تسمح لهم بالدخول عليها دفعة واحدة، إذ تكره الفوضى والإزعاج وخاصة من الأطفال، فكانوا ينتظرون في غرفة انتظار، ثم يدخلون عليها عائلة عائلة.

ولكن "سالم" أعزب، يدخل عليها وحده، وهو الوحيد الذي تحبه و تمنحه الدلال، فهو حفيدها الأول، وبينما كان الجميع يطمع بمالها، فيتذللون لها لشراء أثاث

أو سيارة، أو لدواعي سفر، وكثير منهم نافقوها فسمَّوا بناتهم على اسمها "سبيكة"، كان سالم هو الوحيد الذي لا يطلب منها مالاً، لكنها كانت تعطيه دائماً، وكأنها لا تريد أن يرثها أبناؤها وبناتها المنافقون، كانت تعطيه رزماً نقدية، ملفوفة بورق جرائد وتضع الرزمة في كيس بلاستيكي، ثم تغطيها بجريدة أخرى، وكانت تستقبله هكذا:

- "هلا.. وكل الهلا.."

لكنه بالطبع، كان ينتظر دوره في الدخول، مع المنتظرين من أقاربه الذين كان يستمع لتحضيرات أولادهم للدخول:

- "بوس راسها، وقول لها يما سبيكة أحبك".

وكان يستمتع عند خروجهم متذمرين:

- "زفتنا، والعنت أبو خامسنا".

- "شكثر هالمرة لسانها طويل، أنا رجال شكبري تسبّني وتقول يا حمار يالغوري"؟!

كان سالم يضحك في سرّه، وخاصة عندما يسمع صراخها، فيتوقع الوجوه الخارجة منها بعد قليل، كان

الجميع يحسده ويغار منه، بل كانوا يكرهونه ويتهامسون من خلفه:

- "نصّاب.. محتال.. منافق.. ماخذ كل فلوسها.. "

وكان يعرف شعورهم تجاهه ولا يهتم، وهو مثل جدته سبيكة، يتصرف على طبيعته، مثلها تماماً يحب النظافة والأناقة، وكانت تقول لهم:

- "سالم غير.. نازك، مو انتو وسخ وقطين".

وجدّته لا تؤمن كثيراً بالبنوك، فكانت تحتفظ بمبالغ كبيرة، في خزنة بغرفة نومها، وعندما يزورها سالم:

- "يما جاي أسلم عليك، بسافر".

فتطلب منه أن يدفع كرسيها إلى الخزنة، وتطلب منه أن يفتحها بعد أن تعطيه الأرقام السرّية، ثم تقترب وتتناول رزمة أو رزمتين من النقود، لا تعرف كم تبلغ، وتعطيه سائلة:

- "كم هذيلة"؟

- "هذيلة وايد يما".

- "كفاية"؟

- "كفاية يما وزايد، الله يطول بعمرك".

وهي تثير ضحكه في كثير من الأحيان، عندما تطلب منه أن يأتيها بدفتر أرقام الهواتف، فهي تعرف الأرقام كتابة وقراءة، ولكنها لا تعرف كتابة وقراءة الأسماء، فترسمهم كرموز، مثل سمكة، بطة، أو شجرة، وكل رمز يعني اسماً تعرفه، وكان رمزه هو وردة.

وكان دائم السخرية من أبناء العائلة المتزوجين، جميعهم تزوجوا بناتاً كانوا يعتبروهن جميلات، لكن بعد سنوات، انتفخن وتمددت كروشهن، ودكنت ألوان ما تحت العيون، وتحولن من إناث، إلى كائنات المابين، علت أصواتهم، وصار تنفسهن أسرع، وأصبن بارتفاع السكّر وضغط الدم.

وعندما سألته جدّته مرة:

- "ما لك نية تشوف لك بنت حلال"؟

كان يردّ:

- "لا، مالي خلق، وما عندي وقت".

- "أشوف لك وحدة بنت حمولة"؟

- "ما أبي أصير مثل عيالك وعيال عيالك".

ويشرح لها وجهة نظره عن تغيُّر تضاريس الأجسام،

وانقلاب الوجوه وتغيُّر الأصوات بعد سنوات، وضرب لها أمثلة بفلان وفلانة، وفلان وفلانة، وهي تضحك من قلبها، ثم تقول له من بين دموع الضحك، ومن خلف طقم الأسنان:

- "أيه والله، شلك بالزواج، كله غثا وأذية".

* * *

ذبذبات صوت عادم الدراجة النارية، يصنع ذبذبات في جسديهما، حتى كادت شيخة تغفو على ظهر سالم، من الصوت ووشوشة الهواء في خوذتها.

كانت وأصبحت، ليسا بالضرورة أخوات

قضيا ليالي متدفقة العواطف والمتع، كانا يخرجان معاً صباحاً، يجوبان ساحات ومقاهي وقلاع فيرونا، ويعودان مساءً ليناما ملتصقين، يحتضن الواحد الآخر بعد امتزاج عرق الحب، وكانا يستيقظان صباحاً على صوت القبل، قبل صوت انهمار الدش على جسديهما، كانا يتمطيان على السرير، كقطط شبعى من كل شيء، متمهلان في النهوض من دفء النعيم، وثمالة بقايا الرحيق، وفي عينيهما بريق الرضى.

* * *

كشفت شيخة عن ثمارها حلوة المذاق، التي كانت مغلفة بقشرة صلبة، كثمرة جوز الهند، من الخارج خشنة، صلبة، بشعة المنظر، كالحة اللون، وفي الداخل ثمرة بيضاء، طيبة المذاق، ماؤها حلو بنكهة الطبيعة العذراء.

كل أنثى تولد، تحل بركة من السماء، وكل طفلة تضحك وتلعب، تحيطها نجوم متلألئة، وكأنها ملاك أتى لينثر البهاء والنور في البيت، ملاك يلمس بأصابعه الصغيرة قلبي الوالدين، فينبضان فرحاً وإشراقاً، وطهارة.

كل طفلة تولد، تغيّر مجرى تاريخ والديها، وتسبغ على الدنيا رونقاً مختلفاً، فهي رمز لكل شيء جميل، بريء، نقي، طاهر، هي سرّ الوجود، وبوابة الحياة، هي برعم الثمر المنتظر، وأساس الجمال في الكون، مثل الأشجار، كلما كثرت زادت نسبة الأكسجين والنقاء على الأرض.

* * *

عندما ولدت شيخة، طار قلب والدها فرحاً، أتت بعد أربعة إخوة، بعد طول انتظار، وأحاطها بمحبة غامرة، وتخيّل مستقبلها وخطط له، كأحلام يقظة، راقبها تكبر وتتشكّل جمالاً نقياً، وأغنيات طفولية عذبة، فأغرقها بالألعاب والملابس، وشعر أن ولادتها غيرت شيئاً في حياته، وأضفت عليه حياة أخرى، وكأنها حج، وخط

فاصل بين المعصية والإيمان، كان جلوسها على حجره، طاقة تمده بحياة أطول وأفضل، وكانت ضمّتها وقبلاتها الصغيرة العطرة، عندما يعود من العمل أو السفر، واحة المتعب، وماء العطشان.

كان ينظر إليها وهي تلعب وتغني أغنيات البنات، وكان خياله يسبق السنوات، فتارة يتخيّلها بشعر طويل، وتارة بشعر قصير، وتارة بكعب عال، وتارة في يوم التخرج، وتارة بفستان عرس، وكان هذا الخيال كافياً لكي تنساب دمعاته، وكان يراقبها وهي تنام في حضنه، ويسمع أنفاسها الخفيفة، ويظل قلقاً في نومه كي لا يزعجها، وعندما تصحو من النوم، تكون رائحتها كرائحة التفاح الطازج.

كانت شيخة طفلة رقيقة بريئة، تخاف من البرق والرعد، وترتعب من إبرة الطبيب، كان جلدها الناعم يزرق بمجرد ضربة خفيفة، وعندما كانت تقصف الرعود، وتلمع البروق، كانت تأتي باكية مذعورة لتندس في فراش والديها، باحثة عن الحماية والأمان.

كانت طفلة خجولة، لم تستطع الاندماج مع أقرانها

في الحضانة والروضة والابتدائية والمتوسطة، وكانت المدرسات كثيرات الشكوى من انعزالها، وكلما كبرت وانتقلت إلى مرحلة دراسية أعلى، شعرت بنقص أمام زميلاتها وزملائها، كانت تعجب بجرأتهن وانطلاقهن، وتكره انزواءها وضعفها، فتلقي بنفسها في أحضان والديها باكية، وظلت تحاول تقليد تصرفات زميلاتها.

ولم تبدأ بالتغيُّر إلا في نهاية المرحلة المتوسطة، عندما أعطتها زميلتها رقم هاتف ولد، فبدأت تتعرف على بذاءات المراهقة، واكتشاف عالم خارج ذهنها النظيف، في تلك الفترة كان جلُّ اهتمام صديقاتها هو التنافس على عدد الأولاد الذين يكلموهن ويقبّلوهن، وعلى عدد الأرقام المحصلة من الشباب في المجمعات والسينمات، وكأنها هواية جمع طوابع بريدية.

وبدأت تغرق في لعبة تبادل الأرقام، ثم جاءت مرحلة التدخين في حمّامات المدرسة، ومرحلة تبادلهنّ القبلات، وتقبيل الشباب في الأماكن المنزوية، وتقليد فتيات الأفلام الأجنبية، وتبنّت أفكار البنات حول حق الحرية، وعدم فهم أهلهم المتخلفين لمتطلبات الجيل الجديد، وتلاشت

تدريجياً مرحلة الشعور بالذنب، وتلاشى معها تفوُّقها الدراسي، وأصبحت تتعثر سنوياً، وتكثر من الغياب، فهي تسهر طوال الليل في حديث داعر مع أحد الشبان، وتعجز عن الاستيقاظ مبكراً، وبدأت ترضى شيخة عن نفسها، فلم تعد معزولة أو معقّدة.

حتى جاءت مرحلة فض البكارة في الثانوية، والتي كانت نقطة تحوُّل جديدة في تكوينها الشخصي، وبناء عالمها وقناعاتها وطريقاً لا رجعة منه في حياتها، طريقاً حدد ملامح صداقاتها، وأفكارها، ومبادئها، وفهمت القوة بشكل مغلوط، أخفى أنوثتها، وتبنّت المبدأ الرجولي في القوة، وتنازلت مع الزمن عن قوّتها الحقيقية الجبارة، وهي الأنوثة.

وكان كل شيء بالنسبة إليها تجارب، العلاقات تجارب، الشذوذ تجارب، شرب الخمر تجارب، تدخين الحشيش تجارب، ولكنها لم تكن تدرك أن بعض هذه التجارب ستكون شركاً، لن تستطيع الإفلات منه، مثل الألم الذي أصبح مرادفاً حتمياً للذة، مثل الإدمان على

العلاقات الجنسية، والغَيرة وحب التملك، وبقيت بقية التجارب حسب الظرف.

وخلال حياتها جربت كل التجمعات والأفكار المتطرفة، وغير الاعتيادية، مثل عبدة الشيطان، والغوثك، وحتى الماركسية بمفهوم خاطئ بعيد عن الفلسفة، وخاصة أنها فهمت من كتابات المحافظين، أن الماركسية دعوة للإباحية ونبذ الدين، كل تجربة خاضتها سواء أعجبتها، أم لم تعجبها، كانت رضاءً ذاتياً عوّضها عن ضعف وسذاجة طفولتها.

وكان حب والدها، وتدليله لها، ومنحها حرية غير محدودة، عاملاً مشجعاً على المضي، واستقوت به على إخوتها ووالدتها وجميع أهلها، فعندما كانت تتأخر في العودة ليلاً، وتسمع تأنيباً من والدتها، كانت تتصل فوراً بوالدها باكية، وسرعان ما تعطي السماعة لوالدتها، وتستمع لصوت والدها عالياً يخرج من السماعة لأذن والدتها، التي تتغير ملامحها.

تساءلت والدتها: كيف تحول هذا الوجه الملائكي،

والجسم اللدن، إلى تكوين حافلٍ بالثقوب والأقراط والأوشام؟! كيف أصبح ذاك الفم الذي كان يزهر بالضحكات وأغنيات الطفولة، إلى فم وقح، وكيف غدت تلك الشفتان الورديتان إلى قطعتي لحم داكن ناشف؟! لكن زمام الأمر خرج من يدها سنة بعد سنة، وتمادياً بعد تمادٍ، حتى استبدلت وحيدتها بامرأة لا تشبهها، غريبة عنها، خشنة كعاملات المصنع، أما أخطاؤها المكتشفة، فهي فرصة للوم الوالدين الواحد للآخر.

* * *

علاقتها بسالم، أشبه بتفجر ماء عذب من أرض صحراوية، أرض جفّت وديست لسنوات، دون أن يعرف أحد ما تحتها، وحده سالم حفر في المكان المناسب، وبمهارة استثنائية، لإخراج العذوبة الكامنة فيها، وحده أضاء إعلان الحب بالنيون، بعد أن ظل مطفأً معتماً لسنوات، موجود وغير موجود، الآن تستطيع أن تقول بالفم الملآن:

- "أحبك".

وهي تعني وتشعر بما تقول، وتشعر بتدفق الدم في عروقها، حين يقول:

- "أحبك".

كل:

- "أحبك".

التي سمعتها سابقاً، كرهتها لفجاجتها وسخفها، فمنذ المرحلة المتوسطة، أصبحت الكلمة لاتعني أكثر من فاصلة بين الكلام، ومرادفاً من مرادفات فن الخداع، ووسيلة من وسائل الوصول إلى السرير، لم يكن بين كلمة أحبك، وبين الصدق أي صلة، كانت منطفئة لا هالة لها ولا طاقة، كانت مفردة خاوية، كصوت إناء فارغ، حتى جاء صوته:

- "أحبك".

ليعيد للمفردة معناها، ويعيد للمعنى اعتباره، كانت الشحنة الشعورية لصوته يخرج بالكلمة، كافية لشحنها بطاقة الحياة، كقشعريرة الجسد عند سماع قصيدة تمسّ الروح، كلحن يسري في العروق، ويتردد صداه في

حجرات القلب، كالجنون الجميل الغامض بمعناه، كالغموض الفاتن لفيلم من أفلام يوسف شاهين أو فلّيني.

كلمة فيها زخم إبداعي أخّاذ، فيها شعور من غير الإنصاف وصفه، ومن غير العدالة تأطيره، كالعصفور، جماله في التحليق، لا بقفصه الجميل أو صورته الفوتوغرافية الملونة.

في خلال أيام وساعات قليلة، تغيرت فيها أشياء، وكأنها استعادت براءة شيخة الطفلة، فلم تعد تستيقظ كالراقصات ظهراً أو عصراً منفوشة الشعر، وتظل في فراشها تصبغ أظافر أصابع رجليها بلون غامق أو براق، لم تعد تدخن على الريق، وتنثر الرماد على السرير وعلى الأرض، لم تعد تنثر ملابسها على أرض الغرفة، وبقايا بيتزا على الكومدينو، لم تعد تتمخط بصوت عال في الحمّام، تاركة بقايا بلغم في المغسلة، لم تعد تنسى سحب السفون ثم تغطيته، تغيرت، بل استعادت ما تعلمته في صغرها من متحف الذاكرة.

كيف كانت؟ كيف أصبحت؟ هذه الحالة أفزعتها، استعادت معها حالة الخيبة والخجل الطفوليين، تلك

الحالة التي ألغتها من حياتها، ولا تريد العودة لها، حاولت أن تهرب من النتيجة / التداعيات، أن لا تفكر فيها، حاولت أن تقنع نفسها بأن غداً أمر، يجب ألا يوقظ التفكير فيه سكرة اليوم، وفضلت العيش لحظة بلحظة، وليأت ما يأتي.

* * *

مع رائحة القهوة المنعشة، كانت تنظر عبر الزجاج إلى قرميد البيوت، التي تسلقت على حوائطها أغصان اللبلاب، وورود المجنونة بألوانها، الحمراء والوردية والمشمشية، وغيوم الصباح المتناثرة، لا تنوي تغطية ضوء الشمس، وأشجار السرو التي تنتصب كأنصال الرماح، أو كنساء رشيقات، تتمايل متثائبة مع نسمة الصباح.

نظر سالم إلى وجهها الصبوح، كانت عضلات وجهها مسترخية، تنبعث منها رائحة الصابون الطازجة، كانت مطمئنة، في حالة سلام وتصالح روحيين، كانت أنثى للتو استيقظت، ووردة للتو تفتّحت مع خيوط الشمس الأولى، حدَّق بأصابعها المُمسِكة بفنجان القهوة، الذي يتعالى منه

بخار ذكي الرائحة، إنتبهت فالتفتت إليه مبتسمة ابتسامة هادئة:

- "شنهو"؟

ردّ مبتسماً بدوره:

- "ولا شي".

دعوة ملَكية

تلقّى جميع النبلاء وأسرهم في بريطانيا، دعوة مختومة بختم الملكة فكتوريا، تدعوهم لحضور الاحتفال الذي سيقام في القصر الملكي بمناسبة عيد ميلاد الملكة، وقد عمل موظفو البلاط عدة أشهر، استعداداً لهذه المناسبة التي ستستمر سبعة أيام وسبع ليال، وقد وزع وزير البلاط العمل، على أكفأ مئتين من موظفي البلاط، بحيث يقام هذا الاحتفال دون نواقص، حيث تمّت دعوة ملوك وأمراء ونبلاء أوربا وروسيا القيصرية، أو ممثلين عنهم.

وعكف كل مسؤول مع لجنته المكلفة، بوضع الخطط وتنفيذها، بعد أن وفَّر لهم وزير البلاط مبالغ طائلة، فهناك لجنة كانت مختصة، بإرسال موفدين برتب اجتماعية وعسكرية عالية، إلى كبار المدعوّين من الملوك والأباطرة والأمراء، ولجنة أخرى مختصة، بوضع مراسم الاستقبال،

خارج وداخل البلاط، ولجنة مختصة بالتعاقد مع فرق أوركسترا من فيّنا وألمانيا، ولجنة مكلَّفة باختيار أفضل الطهاة والسقاة وأفضل طعام وأفخر شراب، وأخرى لجلب الورود الطازجة من هولاندا، إضافة إلى الخياطات والخياطين، المكلَّفين بتفصيل أربعة عشر فستاناً للمناسبة، مشغولة بالذهب والمجوهرات، وكلِّف صائغو مجوهرات من أنحاء العالم، لصياغة عقود وأقراط من الألماس والزمرد والياقوت، ومختلف الأحجار الكريمة والمجوهرات، هذا عدا الوصيفات والخدم والسائسين، ليبلغ عدد العاملين في الاحتفال أكثر من ثلاثة آلاف شخص.

وأُعلن أن أسبوع الاحتفال سيكون عطلة رسمية في بريطانيا ومستعمراتها، وأُوعز إلى الشعب بضرورة الاحتفال وعدم فتح المحلات لمدة أسبوع، كما أُوعز إلى الضباط في المستعمرات التي تتبع التاج البريطاني، بتنظيم احتفالات ضخمة تتناسب مع الحدث العظيم، واستُنفر الحرس والجيش ورجال الشرطة، لأخذ جميع الاحتياطات

الأمنية، وحراسة كبار الضيوف من لحظة وصولهم على الشواطئ الشرقية للجزيرة البريطانية، وحتى وصولهم إلى القصر الملكي.

وفُتحت خزائن الإمبراطورية على مصراعيها، للإنفاق على هذه المناسبة الجليلة، واختفت الرقابة على المال، ووجد القائمون على أمور الخزانة فرصة للاستفادة من هذه الثروة، لزيادة ثرواتهم الخاصة، بتواطؤ وتراضٍ فيما بينهم، لكن ما دامت المستعمرات تدر ثروات الشعوب باستمرار إلى الخزانة، فمن الإنصاف أن يأخذ المسؤولون فتاتاً منها، وحتى الملكة كانت تغض الطرف عن مثل هذه الممارسات، في سبيل الولاء التام، والحفاظ على العرش.

* * *

وحال تلقّي الأُسر الدعوة الملكية، بدأت بالتخطيط والاستعداد، وفكّرت النساء في منافساتهن، وسافرن سراً إلى باريس وجنوا لجلب أحدث خطوط الموضة، من

فساتين وقبعات وأحذية، وأصبح الازدحام شديداً على الخياطين وصانعي الأحذية في لندن، وأصبح الرجال والنساء، يدفعون رُشىً كبيرة لتقديم طلباتهم على غيرهم، كما اختفى أشهر الخياطين في القصور، لقياس الفساتين والبدلات، فلا يعودون إلى محالّهم وبيوتهم، إلا في وقت متأخر من الليل، وعلى مدى اشهر ازدهرت تجارة الأقمشة والجلود والمجوهرات، وازدهرت المهن المتعلقة بالأزياء، وحتى الأشياء المرتبطة بالحفل، مثل تصليح وإعادة دهن وزخرفة العربات، وتجديد أزياء السائقين والمرافقين.

وارتفعت أسعار الأزياء والمجوهرات في أوربا، ونشطت حركة استيراد الحرير الصيني، والعطور العربية، وفراء المنك الروسي، ونقلت السفن آلاف الأبقار والخنازير، ومختلف الأغذية من عدة أماكن في العالم.

وأصبحت مدينة لندن، خلية نحل نشطة، وأقيمت عدة مآدب في بيوت العائلات الكبيرة، للحديث عن المناسبة، وما صاحبها من آثار جانبية، بعضها إيجابي، وكأن سكان

لندن كانوا يبحثون عن حدث كبير كهذا، أو إعلان حرب مثلاً، لينشط اللغط والنقاشات والإشاعات، وتناول الرجال البدناء المخمورون الآثار السلبية على الاقتصاد، وعلى تمويل الحملات العسكرية، وتطرقوا لأثر الحدث على غلاء المعيشة، كما برزت آراء أخرى، تشيد بحكمة الملكة في السياسة الخارجية، وذلك بتقريب وجهات النظر، وردم هوة الخلافات بين أبناء العمومة، في الممالك الأوربية، كما ساهمت بهذا الحدث، بتنشيط الاقتصاد في هذه الدول، وتعددت الحوارات بين السطحي والتافه، وبين العميق المؤثر.

أما النساء، فقد خلق لهن الحدث مجالاً خصباً للمبالغات، واختلاق الأكاذيب، بالغن في أثمان فساتينهن، وأعطين لأنفسهن أهمية، بالادّعاء أن وزير البلاط زارهم بنفسه، ليقدم لهن الدعوة، وأن الملكة بنفسها قد أكدت على ضرورة حضورهن، ثم اختلقن أكاذيب، حول عائلات لم تصلهن الدعوة الملكية، إما لوضاعة أصولهن، أو لسلوك شائن أضرّ بالمملكة، وأسأن

لسمعة العديد من النساء الشريفات، فقط لأنهن أقلّ منهن ثروة وجاهاً.

وفي الشارع، اكتظت الحانات بالسكارى من العمال والبسطاء، وصغار الحرفيين، والجنود، الذين تحدثوا بأصوات عالية صاخبة، دون أن يسمعوا بعضهم لبعض، وانتشرت شائعة بينهم، أن الملكة ستوزع في عيد ميلادها، عشرة جنيهات ذهبية، على أُسر الشعب البريطاني، واحتد النقاش وتوزعت اللكمات والصفعات، وكسرت قوارير وطاولات، ثم عاد الوئام والنقاش بعقلانية ومحبة أكثر.

* * *

وفي اليوم الموعود، اصطفت العربات المتنوعة في طابور، كي ينزل أصحابها أمام مدخل القصر، كانت العربات تختلف في أحجامها وعدد الخيول التي تجرها، وكل عربة كانت تدل على مكانة صاحبها الاجتماعية، وقُدمت الدعوات للحاجب صاحب العصا الطويلة ذات المقبض الفضة على شكل بيضي، فينادي بصوت عال معلناً عن اسم الضيف ولقبه.

وفي القاعة الفسيحة الفخمة، كان النُدُل الأنيقون يطوفون بصواني المشروبات والمقبِّلات على آلاف الضيوف، الذين أحدث حديثهم ضجة، وفي طرف القاعة كانت فرقة أوركسترا رباعية وترية، تعزف ألحاناً باروكية، ذات وقع فخم على الأسماع، كان ذوو الرتب العسكرية يقفون بانتصاب في حللهم الرسمية، وقد تدلت النياشين والأوسمة منها، وهم يتحدثون بحماس، وقد احمرت خدودهم بتأثير الخمر، وحركت النساء مراوح اليد على وجوههن، مع ابتسامات عريضة، وضحكات قصيرة محتشمة.

كان جون هوبكنز يتحدث مع مجموعة من الأصدقاء، عندما لمح جاره السير بيتر سلفرثورن وعائلته، فاستأذن جون من أصدقائه، واتجه إلى جيرانه، وما إن رآه بيتر حتى قال ممازحاً:

- هوبكنز، مرحباً، نحن نشكر الملكة التي جعلتنا نلتقي بعد غياب، رغم أننا جيران.

أحنى جون رأسه تهذيباً للسيدة سلفرثورن وربيكا، بينما علّقت ربيكا عينيها على وجهه، وأكد جون:

- بالفعل ياسيدي، أنا أمقت مشاغل الدنيا، لأنها تبعدنا عن من نحب.

استحسن السير بيتر جواب جون، واضعاً إبهاميه في جيبي الصِّدار الصغيرين، ولاحت نظرة من جون لربيكا السعيدة بوجوده، وقال:

- وكيف هي الآنسة ربيكا؟ فمنذ زمن لم تأخذني بجولة تعليمية في مزارعكم.

فردت:

- يسعدني ذلك، يا سيد هوبكنز.

فقال الأب:

- صحيح يا عزيزتي ربيكا، لا بد أن تأخذي السيد هوبكنز في جولة حالما نعود.

- بكل تأكيد يا أبي.

وابتسم جون وربيكا ابتسامة تواطؤ.

* * *

أُوقفت الموسيقى فجأة، وأعلن الحاجب بصوت عال:

- صاحبة الجلالة فكتوريا، ملكة بريطانيا العظمى.

فانقسم الضيوف صفين، تاركين ممراً عريضاً لمرور الملكة ومرافقيها، وانفتح باب عالٍ وضخم، ودخلت منه الملكة تسير ببطء باتجاه العرش، وانحنى لها الضيوف من الصفين، ووزَّعت الملكة الابتسامات على الجميع، قبل أن تجلس على عرشها، بينما كانت مجوهرات التاج تلمع عاكسة أضواء القاعة.

ثم بدأت المناداة على الأسماء للسلام على الملكة، حسب الرتبة والمقام الاجتماعي، حتى جاء اسم السيد جون هوبكنز، الذي انحنى بخشوع أمامها، فقالت له مازحة:

- يبدو يا سيد هوبكنز، أن الحب خطير في هذه الأيام، وقد يؤدي إلى الموت، أليس كذلك؟

عرف جون أنها تقصد المبارزة التي أصيب بها، فردَّ بتهذيب:

- جلالتك علمتنا الحب، والاستعداد للموت من أجله.

فقطبت الملكة جبينها قائلة:

- ماذا تقصد هوبكنز.

ردَّ بنفس التهذيب واللباقة:

- حب جلالتك العظيم لبريطانيا، ووقوفك بشجاعة أمام الأخطار الخارجية، أكبر مثل لنا.

ضحكت من مكره الذكي، وقالت:

- لا أحد يغلب الشعراء.

* * *

عزف الفالس، وانتظمت القاعة بالراقصين الرشيقين وغير الرشيقين، الشباب وكبار السن، وانحنى الرجال للنساء طالبين إذنهن بالرقص معهن، واقتربت العازبات من جون، علّه يرقص معهن، وهمست بعض الفتيات له:

- أتشرف بالرقص معك، إن طلبتني.

بينما ربيكا، كانت تتغلغل بين الأكتاف، تريد الوصول لجون لترقص معه حسب اتفاق مسبق بينهما، ولكنها فوجئت به يرقص مع فتاة أخرى، فجُنَّ جنونها واشتعل

قلبها بنار الغَيرة، وحبست دموعها، وأعلن وجهها عن حمم في داخلها، وزاد من الأمر سوءًا، عندما انتهت الرقصة، وعاد جون يمسح جبينه بمنديله، فتلقفته فتاة أخرى للرقصة الثانية.

كان جون يجامل الفتاة بابتسامات مهذبة، لكنه كان يبحث بعينيه عن ربيكا، وفجأة وجدها في حلبة الرقص، مع ضابط من الفرسان، كانت تهمس في أذنه وتضحك بشكل أثار الهمس من حولها، مما أثار قليل من الغَيرة والحيرة لدى جون، لم تكن ربيكا تنتظر أن يدعوها رجل للرقص، ولكنها كانت تدعو الضباط، الواحد تلو الآخر، بجرأة خارج العرف، وهذا أثار استياء جون.

وعندما حانت الفرصة، أمسك جون بذراعها برفق، وسألها مستغرباً:

- ماذا تفعلين؟!

قالت باستهتار:

- أستمتع بوقتي، ألا تستمتع بوقتك؟

كان صوتها غريباً، فيه رنّة داعرة، وكان وجهها المبلل

بالعرق شيطانياً، محاطاً بهالة صفراء كالمرض، وكان الجنون يطل من عينيها، كانت ك"ميدوسا" المرأة الأسطورية التي تخرج من رأسها آلاف الأفاعي الصغيرة.

خاف جون من نظرتها، وشعر بأنها امرأة أخرى، لا تشبه التي أحبها، ولم يفهم ما الذي ألمَّ بها، كانت تنفث من أنفها هواءً حاراً، وكأنها حصان سباق، أو كأنها نمر يهم بالانقضاض على فريسته، وفي تلك اللحظة قالت له بصوتها الغريب:

- لا تلتفت.

- ماذا؟

بعصبية كررت:

- لا تلتفت.

وفي تلك اللحظة، سمع جون صوتاً رقيقاً من خلفه:

- سيد هوبكنز.

التفت، ليجد امرأة جميلة تبتسم له، وأردفت:

- أنا السيدة سنكلير، ومن أكثر المعجبات بشعرك.

انحنى جون قائلاً:

- تشرفت يا سيدتي.

- أريد أن أتحدث إليك في موضوع مهمّ، أعلم أنه قد لا يكون الوقت مناسباً، ولكنها قد تكون المناسبة الوحيدة التي أستطيع التحدث فيها معك.

ارتبك جون، وتلجلج بكلامه، وقبل أن يفصح عن رأيه، جرّته من ذراعه قائلة:

- لن آخذ من وقتك كثيراً، سنحتاج إلى مكان أهدأ.

انساق معها محرجاً، التفت إلى ربيكا ووجد وجهها محتقناً مهيَّأً للبكاء، وخرجت به إلى التراس المفتوح، ثم إلى الحديقة، وهي لم تكفّ عن الحديث، الذي لم يكن جون يسمعه، بدأت بالشعر، وانتهت بقصة حياتها وتعاستها مع زوجها العِنِّين، والمدمن على القمار، لا يعلم جون كم مرّ من الوقت، بيد أنه يذكر أنه لم يقل كلمة واحدة، خلال هذا الزمن الممطوط، الذي انهمرت عَبره دموع المرأة، وبشكل غير متوقع، فاجأته المرأة بقبلة على شفتيه، فأبعدها جون برفق قائلاً:

- سيدتي، رجاءً تمالكي نفسك.

لكنه لم يكن يعلم أن ربيكا كانت تراقبهما، من الشبّاك العالي، حتى التفت فوجدها واقفة من بعيد، كممثل إبليس، استأذن من المرأة، وأسرع بالدخول إلى القاعة، فوجد ربيكا ترقص بجنون مع أحد الضباط، الذين وجدوا فيها صيداً سهلاً، كانت تنظر إلى جون كي تتأكد أنه يراها، ثم تزيد من غنجها والتصاقها بالرجل، وقد بان أثر السكر عليها.

انسحب جون من الاحتفال، وركب عربته، وهو يشعر بألم وحيرة من كل ما حدث، كان حدثاً غير منطقي، وكأنه مؤامرة مدبرة، لم يفهم سبباً لتصرفات ربيكا في البداية، ثم هذه المرأة المهووسة التي اغتصبت شفتيه، ورؤية ربيكا لهذه الكارثة التي لا ذنب له فيها، ثم سلوكها غير المقبول وغير المحتشم، الذي كان أكثر إيلاماً من الطلقة التي أصابت ذراعه، كل ذلك حدث بسرعة وفجأة، كصدمة انفجار قذيفة، وبعد إنجلاء الدخان نرى ما خلّفته من دمار.

مع ارتجاج عربته على الطريق، شعر بغضب عارم، لا

يعلم على من أو ماذا، كان مطبق القبضة، كمن يستعد للكم أحد، ففي حياته لم تكن تعنيه تصرفات النساء، اللواتي أقام معهن علاقات، فلماذا أثرت به تصرفات هذه الطفلة النزقة، لو كان الأمر حدث له مع امرأة أخرى، لسخر من سخافتها، لكن لماذا شعر بالظلم والمرارة، كمن فقد جزءًا من كبده؟!

* * *

في تلك الليلة، التي رقصت فيها ربيكا بجنون دامعة العينين، حتى تبلل إبطاها، أعطت موعداً غرامياً لثلاثة ضباط من سلاح الفرسان، كان اثنان منهما متزوجين.

O sole mio

وضع سالم خمسين يورو في قبعة عازف سكسفون، يصاحبه عازف أوكورديون، حيث كانوا يعزفون الأغنية الإيطالية المشهورة O sole mio، وأغاني أخرى لفرانك سيناترا مثل It had to be you والأغنية الكلاسيكية I am in the mood for love، فهو لايستطيع أن يتجاهل فناناً يكسب لقمة عيشه من العزف على النواصي، يشعر بأنه عزيز قوم ذلّ، كان ينفطر فؤاده لرؤية فنان موسيقي، أو تشكيلي يبيع فنّه على قارعة الطريق، فالمبدعون مكانهم في صدارة المجتمع والتاريخ، ابتسم له العازف قائلاً:

ـ Grazie[12].

تمتم سالم:

---

(12) شكراً بالإيطالية.

- تموت الأسد في الغابات جوعاً ولحم الضأن تأكله الكلاب.

رفعت شيخة رأسها من على كتفه، وابتسمت دون أن تفهم قصده، ربما كان سالم يفكر في حاله، لو جارت عليه الأيام، وأصبح كهؤلاء الفنانين، أو ربما كان يشهد اختلالاً في الكون، وانقلاباً في المواقع، أو إرثاً من طفولته.

* * *

كان في السابعة من عمره، متمسكاً بسبّابة والده في ساحة بيازا نافونا بروما، عندما شاهد فناناً تشكيلياً عجوزاً، يعرض لوحاته للبيع، كان غافياً على كرسيه، وقد احتمى من الشمس الحارقة بقبعة أنزلها حتى حاجبيه، ولفّ حول رقبته منديلاً بلون الشذر، كي يمتص عرقه، كان يبدو عليه الفقر، كان قميصه الأزرق العتيق، قد فتح لونه من كثرة الغسيل، فأصبح أقرب إلى البياض، كما بان أثر الزمن، على بنطاله البيج، بيد أنه ما زال أنيقاً، بتناسق ألوان ملابسه، وكان شعره الأبيض الطويل من

تحت قبعته، يضفي على شكله مسحة فنية، كان يغفو وهو واضعٌ ساقاً على ساق، مستنداً بيديه على ركبته العُلوية، كنبيل فقد ثروته، كـ"دون كيخوتا دي لامانشا"، الفارس الواهم ذو الدرع العتيقة.

شعر والده بمقاومة من سالم، وأفلت يده الصغيرة من إصبعه، ووقف يحدّق بالفنان وفي داخله رغبة في البكاء، لا يعلم لماذا شده منظر هذا الشخص المميز، وانحنى ليرى وجهه من تحت القبعة، فقال له والده:

- "يلا سالم".

لكنه كمن لم يسمع، ظل واقفاً ينظر إلى الرجل الغارق في غفوته، وهو يغالب البكاء، فأتي صوت والده مستحثاً:

- "سالم، سالم.. يلا".

فقال سالم لأبيه وقد انقلبت شفته السفلى وتهيأ للبكاء:

- "يبا عطه فلوس".

ابتسم والده، واقترب منه بصوت منخفض:

- "هذا مو شحّاد، هذا بياع لوحات ورسومات".

سقطت دمعات سالم على خدّيه، وكرر:

- "يبا عطه فلوس، يمكن جوعان".

فرفض والده قبالته، ووضع وجه سالم بين كفّيه قائلاً:

- "يمكن يزعل، لأنه مو فقير، هذا يعيش من بيع لوحاته".

ازداد انهمار دموع سالم، وقال بصوت باك:

- "اشترِ منه".

- "بابا، ما نبي لوحات، خلينا نمشي".

تشبث سالم ببنطال أبيه مترجياً:

- "خل نشتري منه.. وحدة بس".

لم يجد الأب فكاكاً، فاتجه إلى الرجل:

- Excuse me.. excuse me[13].

فانتبه الرجل، رفع قبعته وهو يتنحنح منقّياً صوته:

- si signor[14].

وجعل ابنه سالم يختار لوحة، فاختار واحدة تعكس

---

(13) لو سمحت.

(14) نعم ياسيدي بالإيطالية.

أزقة روما، ومبانيها العتيقة الملونة، بشرفاتها التي تتدلى منها الزهور، كانت اللوحة انطباعية، وظل سالم يحتفظ بها.

وعندما غادرا الرجل، ظل سالم ملتفتاً إلى الفنان العجوز، الذي لوح له بيده مبتسماً، واطمأن سالم إلى أن الرجل سيسدّ جوعه لهذا اليوم.

وخلال السنوات اللاحقة، وحتى بعد وفاة والده، ظل يزور بيازا نافونا، باحثاً عن ذاك العجوز الفنان، ومن يومها، وهو لا يحتمل رؤية فنان يبيع إبداعه على قارعة الطريق، ويدفع لهم مبالغ لا بأس بها، متحاشياً النظر إلى وجوههم.

* * *

قالت له شيخة، وهما جالسان في مقهى بساحة أرينا فيرونا، لاعبة دور المحلل النفساني:

- "يمكن هذا السبب اللي خلاك متمسك بالعزوبية، ورفضك للارتباط".

نفخ سالم دخان سيجارته نفخة طويلة، قبل أن يسأل:

- "شلون"؟

لعقت المثلجات من قمع البسكويت الذي تحمله بيدها، ثم أوضحت:

- "يمكن تأثرك بحادثة الفنان التشكيلي وأنت صغير، وإحساسك بعدم الأمان، وخوفك من غدر الزمان، عشان جذيه ما تبي تورط غيرك بهذا المصير".

ضحك عالياً وقال:

- "يا سلام عليك يا فرويد".

ابتسمت دون أن تردّ، ولكنها أيقنت أنه يخفي ضعفاً إنسانياً خلف ضحكته الصاخبة، خلف وجهه الجادّ والغامض في لحظات الصمت، وقسماته الطفولية في لحظات التواصل الصادق، والاسترسال التلقائي، كطفل يحكي عن شيء أدهشه بعينيه ويديه وصوته المتحمس، كانت تدهشه وتستوقفه أشياء صغيرة، يمر عليها الآخرون مرور الكرام، ويسرح طويلاً بتركيز وانفصال عن الواقع، لمجرد رؤية حمامة تبحث عن غذاء لأفراخها بين بلاط الساحات الصخرية، أو عند طاولات الكافيهات، علّ البشر يسقطون سهواً فتات خبز، أو رؤية طفل ينام في

حضن والده، أو لغياب الشمس خلف قرميد البيوت الريفية على الهضاب، وقد يكون ذلك ما ميزه عن غيره من الرجال، وما شدّها إليه.

* * *

كان سالم يرشف من فنجان قهوة الاكسبرسو، وهو يرقب المارة تحت الشمس الدافئة. عشرات من السائحين يعبرون ساحة الأرينا الواسعة، ويختفون في أزقتها الضيقة، المرصوفة بالأحجار. هذه الأزقة التي تنتشر فيها محلات الماركات العالمية، ومقاهي صغيرة تحوي ثلاث أو أربع طاولات، تتقاسم والمارة والدراجات النارية، عرض الزقاق.

راقبت شيخة معه الناس المتسربلين بالاسترخاء. كانت ظهور الفتيات وبطونهن عارية، يحتضنون فتياناً، ويقبّلونهم لصق الجدران التاريخية، ويمر الناس عليهم دون أن يلتفتوا. تنهدت شيخة قائلة:

- "ألله، ليتني عايشه هني".

التفت سالم ناحيتها مبتسماً:

- "صحيح، إيطاليا جميلة جداً".

- "إذاً ليش ما تهاجر، وتترك الكويت؟ وايد عرب يهاجرون إلى بلدان أوربية".

كان الحمام يقف على رؤوس التماثيل المنصوبة بالساحة، التي تغطت ببزاقها، وكان الأطفال يلقون لهم حبوب الذرة، فيتجمع الحمام مزدحماً بعضه فوق بعض، لعله يلتقط حبة أو اثنتين، قال سالم مع ابتسامة جانبية، وهو يراقب معركة الحمام:

- "أنا أظن الكويت مسويه لي عمل، على كثر ما أسافر ما أقدر أغيب عنها أكثر من أسبوعين، شلون أتركها وأهاجر"؟

رفعت نظارتها الشمسية من على عينيها، وغرستها على شكل تاج في شعرها الكثيف، قبل أن تقول:

- "شعندنا في الكويت غير التخلف والحسد، بلد ما تستحق العيش فيها".

ابتسم قائلاً:

- "لا يطاق الصحو في ذا البلد، هذا اللي قاله الشاعر فهد العسكر من نصّ قرن وأكثر".

- "عيل اتركها، ما عندك لا زوجة ولا عيال، وأنت شخص Free ".

نظر بعيداً إلى نوافير الساحة، كان شخص مستلقياً على إحدى المصطبات الموزعة حول النوافير:

- "تصدقين، الحرية داخلية، يمكن السجين يشعر بأنه حرّ في داخله، ويمكن شخص متحرر من الارتباطات الخارجية، لكنه مقيّد في داخله، دائماً القيود والحدود والاعتبارات ذهنية بالأساس، محد يقيد أفكارنا ومشاعرنا إلا إحنا".

سحب نفَساً من سيجارته وأردف:

- "يعني أنا أسافر وأتحرك بحرية، لكن عندي إرث من القيود الإيجابية والسلبية".

- "مثل شنهو قيود سلبية وإيجابية"؟

- "قيود سلبية، مثل التربية، الأهل دائماً يبون يأطرون عيالهم، فالولد يعطونه وصفتهم عشان يصبح رجل مقبول في المجتمع، مثل عيب الرجل يبكي، تصرف بالشكل اللي يرضي الناس، مو مهم رضاك عن نفسك، وهكذا، والقيود الإيجابية، هي اللي تنظِّم وتشذِّب

تصرفاتنا، عشان نصير بشر متحضرين، مو حيوانات في الغابة، مثل الاتباط في وطن، مو مثل الغجر الرحَّل".

ضحكت بسخرية:

- "هه.. عواطف وطنية، رومنسية غير واقعية.. طيب والتخلف والجهل والانغلاق، وتقييد الحرية الشخصية"؟

- "تتكلمين سياسة؟ أقصد هذه وجهة نظر سياسية".

قالت بملامح حادّة، لا تمتّ للأنوثة بشيء:

- "أنا أكره السياسة، وخاصة في الكويت، السياسة عندنا مهزلة، في الواقع ما زلنا نعيش كبدو في الصحراء. عندنا بيوت وسيارات فخمة، لكن عقولنا مصدّية يعشش فيها إرث البداوة، ما راح نلحق بالغرب أبداً، كل دول العالم الثالث راح تظل تعيش على فتات الغرب، بس شاطرين بالصراخ والشعارات، وتفجير أنفسنا وقتل الأبرياء، أحنا أمّة تعشق الدم".

رد بهدوء:

- "إذا كنت تتكلمين من وجهة نظر سياسية، فالأمر مختلف، وأوافقك على كثير من الأشياء، لكن تقدم

الأوطان مو بالهروب منها. للعاطفة دور وللعقل دور أكبر، من غير ما نحب البلد، ما راح يهمنا نطورها".

- "أنا أتكلم عن تخلُّف شامل، كل شي عيب وغلط، من غير استثناء، حتى الحاجات الأساسية للإنسان، مثل الجنس، هذه الغريزة الفطرية، يعلّمونا من ننولد، أن احنا نكره أجسامنا، نتقزز من الجنس، غير عن الغرب اللي يعلّم الثقافة الجنسية للأطفال، ولذلك إحنا نسميها ممارسة الجنس، وهم يسمونها ممارسة الحب. شوف الناس دار مدارك يقدرون يعبّرون عن محبتهم في أي مكان، حتى الخليجي يقدر هني يحط إيده بإيد زوجته، بعد هذا إذا ما بالغ بتصرفاته، لأنه مكبوت في بلده".

يصله المعنى فيضحك:

- "شيخة، أنت قاعدة تخلطين بين الأمور، ورحتي لمستوى من النقاش غير اللي بدينا فيه. محد يرضى لأحد يقيد حريته الشخصية، ومثل ما قلت لك القيد ذاتي داخلي، له علاقة بالقناعة والمعتقد، سواء كانت صح وألا غلط، له علاقة بقدرتنا على التعلم وسبق المجتمع بأفكارنا

ومبادئنا، مو المشي خلف قافلة المجتمع، لكن ما كو أبيض وأسود. والصح والغلط أمور نسبية عند كل فرد أحياناً، صحيح أن الاعتبارات لازم تكون اعتباراته هو، مو اعتبارات غيره، بس إحنا مو في مجتمع المشاعية البدائية، اللي المرا تقدر تعاشر اللي تبيه من الرجال، أكو شي اسمه حب وودّ ومشاعر، مو بس غريزة حيوانية".

- "أنت قاعد تغلّف قيودك بمثاليات، وتعطيها مبررات، يا ليتني عايشة في مجتمع مشاعي والا بين حيوانات، عشان أنام مع أي واحد أبي".

ضجة في الطاولة خلف سالم، لشبان وشابات يتحدثون بالإلمانية. ولاحظ سالم أن شيخة ابتسمت لأحدهم، فسألها:

- "شسالفة"؟

قالت والابتسامة ما زالت:

- "واحد من الشباب ابتسم لي، الأوربيين ناس ودودين".

التفت سالم، وشاهد شابّاً حليق الشعر تماماً، إلا من خصلة طويلة مجدولة في قِمّة رأسه، بلحية حمراء

مجدولة، وقد ملأت الأوشام والأقراط جسمه، ولم يكن مرافقوه أقلّ غرابة من شكله.

تجاهل سالم هذه المجموعة، وعاد للحديث مع شيخة، ولاحظ أنها تنظر إلى الشاب بين الفينة والأخرى، وبعد عشر دقائق وضع النادل أمامها كأس بيرة، قائلاً:

- هذه من السيد الجالس أمامك.

ضحك الشاب، ورفع كأسه تحية لشيخة، فرفعت كأسها مبتسمة، وقالت لسالم:

- "يا حليله".

شعر سالم بقليل من الغَيرة، وقال لشيخة:

- "لا تعطينه وجه".

وأكملا حديثهما، وكان واضحاً لسالم، أن تركيز شيخة ليس معه تماماً، وبعد فترة استأذنت شيخة للذهاب إلى الحمّام، وشعر بعد دقيقة بقيام الشاب من الطاولة خلفه، وعادت شيخة بعد فترة ليست بالقصيرة، فقال سالم:

- "طولّت"!

- "sorry كان زحمة وايد".

وبعد لحظات رجع الشاب إلى طاولته، ثم لاحظ شيخة تبتسم رافعة كأسها، لم يعرف سالم طبيعة شعوره، لكنه قال لشيخة:

- "نمشي"؟

العطر السامّ

كان قد مر أكثر من شهر، لم يعد جون لمزرعته، وظل في منزله بلندن، كان راغباً في الاختلاء بنفسه، يريد فك عقدة خيط حياته، ومراجعة حسابات الأيام الماضية، وعثرات انسجامه مع نفسه، كانت حياته تسير بسلاسة، حتى مع أحداث ومنغصات مثل المبارزة، لكنه لم يضعف أو يختلّ توازنه قط، مثلما حدث مع ربيكا، هذه الفتاة وكأنها انتقام قدَري، تذكره بأنه إنسان ضعيف، لا بد أن يُكسر في يوم ما.

كان غاضباً على المرأة التي قبلته دون إرادته، وفي وقت غير مناسب، وكان غاضباً على ربيكا التي لم تعطه فرصة التوضيح، وعلى خوضها في طين رذالة الحياة، لكنه كان غاضباً على نفسه أكثر، غاضب من قلة حذره وارتخائه الذهني مع ربيكا، وغاضب أكثر وأكثر، لأنه لا يعرف لذلك سبباً، عرف قبلها مئات النساء، اللواتي قد

يكنّ أفضل منها في استحقاق الحب، لماذا هذه الفتاة المضطربة، التي مرّغت كرامته واعتداده، وكأنها حصان طروادة دخلت قلبه بخديعة، دون إراقة قطرة دم واحدة، أو حتى صوت قرقعة السيوف وتكسُّر النصال، تسربت كالعطر السامّ في دمه.

لم تكن تشبه كل العلاقات التي مرت به، على اختلافها، فطباعها شيطانية، وغَيرتها مرَضية تسبب النفور، وانتقامها شرير سوداوي، في غَيرتها قبح لا يتلاءم مع ما تمثله المرأة من رقة وجمال وسمو، تجعله يكتشف مدى جهله بالمرأة، هو المدعي بفهمه لها، هذا الكائن الذي من غير الممكن توقُّع ما يأتي منه، ليس فقط بشكل دوري وشهري، نتيجة خصوصية تغيُّر الكيمياء في الدم، ولكن غموض هذا الكائن أزلي، وكل محاولة لفهمة عبث. هذه الفتاة جعلته يكتشف، أنه كلما كبر الإنسان، اكتشف أنه يعرف أقل مما يعتقد.

* * *

كان يذرع الغرفة ذات الستائر المخملية، شابكاً كفيه

خلف ظهره، ممسكاً بريشة الكتابة بين أصابعه، وبين فترة وأخرى ينحني على المكتب ويكتب شيئاً، ثم يكمل تجواله في الغرفة الكبيرة. في داخله تعيش قصيدة هي أقرب إلى الحزن، حزن وندم من ارتكب حماقة، وغضب على نفسه، لأنه لم يستطع إلغاء ربيكا من تفكيره. كان يقول لنفسه ثم يكتب:

- تباً لعينيها وابتسامتها.

في هذه اللحظة، رنّ جرس الباب، ولكن جون ظل على روتينه، وكأن الأمر لا يعنيه، حتى سمع صوت الخادم يقول له:

- الآنسة ربيكا سلفرثورن تطلب مقابلتك.

* * *

الرعد قبل أن يهدر

أوقظ سالم نفسه من غشوة التنويم، وكأنه فزّ من كابوس أفزعه. شعر بشعور جون، الذي لم يكن مستعداً لرؤية ربيكا، وتمنى لو كان جون نائماً واستطاع إيقاظه قبل أن يراها. أشعل سيجارة ونفخ الدخان، عله يخرج من هذه الحالة غير المريحة، حالة الحب المكروه. شعوران متناقضان في جسد واحد، وفجأة تحركت شيخة في السرير، وهي مقطّبة وجهها. غطت رأسها بالمخدة، ثم رفعتها قائلة:

- "أوف، طفي السيجارة، ما ني قادرة أتنفس، أو روح دخِّن بالحمّام".

اتجه سالم إلى الحمّام، وأغلق الباب عليه، وجلس على المرحاض ليكمل تدخين سيجارته، وشعر بأنه وضع مهين، وخاصةً أنها نهرته بطريقة فظة، وكأنها تتحول إلى كائن ثانٍ بدائي، عندما يتعلق الأمر بحاجة النوم.

فتح الدش، ووقف للحظات تحته، وترك الماء يضرب رأسه بقوة، مصدراً صدى بين جدران الحمّام، يشبه صوت المطر على الإسفلت.

خرج وهو يربط الفوطة على خصره المبلل، فوجد شيخة راقدة مفتوحة العينين، فقال:

- "ها صرت تطولين بالنوم هالأيام"!

بدأ بلبس ملابسه، فسألته:

- "وين بتروح اليوم"؟

- "اليوم بخليك شوية، عندي شوية مشاوير وأرجع لك نتغدى مع بعض".

تمطت على السرير قائلة:

- "أنا بعد عندي شوية مشاوير وتسوُّق، فخذ راحتك".

وهو يمشط شعره:

- "متى تخلصين"؟

- "ما أدري، بس لا تقلق على الغدا، ممكن آكل شي على السريع".

- "أوكي، نلتقي Have a nice day "[15]

- you too، bye[16].

- bye .

* * *

كان يُعِدّ لها مفاجأة منذ أيام، أن يحجز لها أوبرا عايدة، وفي المقاعد الأمامية، التي ستقام في مسرح الأرينا المفتوح. ذهب مبكراً لكي يحصل على ما يريد، وقف في الطابور أمام شبّاك التذاكر، وبعد فترة زمنية، اشترى تذكرتين في مقاعد أمامية، والتي تعتبر عالية الثمن.

تسكع قليلاً في الشوارع والأزقة، يبحث لها عن فستان سهرة مناسب. دخل كل محلات الماركات العالمية الشهيرة، حتى وجد فستاناً أسود، مفتوح الظهر، وبسيطاً في نفس الوقت، يشبه موضات ممثلات الأربعينيات والخمسينيات. كان غالي الثمن، لكنه كان شغوفاً أن يراه

(15) أتمنى لك يوماً جميلاً.

(16) وأنت أيضاً.

عليها، شغوفاً بأن يرى عليها ملابس تبرز أنوثتها، بدلاً من الجينز و"التي شيرت"، وكتب على الكرت "أحبك"، واشترى كذلك حذاءً بكعب عالٍ، واشترى لنفسه حلة غامقة، ومنديلاً أصفر ليضعه في جيب الجاكيت العُلوي.

كانت حفلة الأوبرا تبدأ في التاسعة ليلاً، وتمتد حتى الواحدة صباحاً. وبعد تبضعه وجلوسه في الكافيهات، نظر إلى ساعة يده، فوجدها قد قاربت الرابعة عصراً، فقرر العودة للفندق وأن يفاجئ شيخة، ويستعدا للحفل الرائع. كان مستعجلاً لكي يرى الفستان والحذاء على شيخة.

وصل إلى الغرفة وفتحها وهو يقول:

- "شيّوخة، شيّوخة".

لم تكن موجودة، فقال لنفسه:

- لعل ذلك أفضل.

قام بفتح علبتي الفستان والحذاء، ووضعهما فوق السرير، لكي تراهما عند أول دخولها الغرفة، وأخرج البطاقة التي كتب عليها أحبك، وأضاف "أنتظرك عند البوابة رقم 8 في الأرينا"، ثم وضع تذكرتها مع البطاقة، قائلاً لنفسه:

- "ستفرح بالمفاجأة".

كان سعيداً. دخل الحمّام، حلق واستحم، ولبس بدلته الجديدة، وخرج بعد أن ألقى نظرة على الفستان. كان يتمنى لو وضع وردة لتكتمل الهدية رومنسية.

تجوّل في ساحة الأرينا، واشترى كتيّباً عن أوبرا عايدة، وعن الفرقة التي ستؤديها، كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة مساءً، فكان ينظر إلى الساعة حيناً، ثم إلى مدخل الساحة. كان يريد أن يراها دون أن تراه، كان يريد أن يرى كيف ستبدو في الملابس الجديدة.

وقف أمام زجاج أحد المحلات، وشاهد انعكاس صورته على الزجاج، فعدّل من هندامه. اقتربت الساعة من التاسعة، فبدأ يقلق، ما الذي أخرها؟ هل يمكن أنها لم تعد من مشاويرها حتى الآن؟ او ربما وصلت ورأت المفاجأة، وقد تكون تستعد في صالون النساء في الفندق، فالنساء يتطلبن وقتاً أطول للزينة والهندام. سينتظرها.

كان ممسكاً بالتذكرة، عندما بدأت الساعة تتجاوز التاسعة، وبدأت موسيقى البداية، قرر الدخول، وبالطبع سيحجز مكانها بقربه. وصل إلى كرسيه بمساعدة نور يدوي

لإحدى العاملات، وحاول أن يستمتع بالأوبرا، لكنه ظل طوال السهرة يتلفت إلى المدخل. فرغم أهمية العمل وأحداثه الكثيرة، إلا أنه لم يستطع التركيز كثيراً، وبدأ قلقه يصبح خوفاً من أنها قد تعرضت لمكروه، إذ لا يعقل أن لا تكون قد وصلت الفندق، وقد تجاوزت الساعة منتصف الليل. وفي الاستراحة حاول الاتصال على هاتفها النقال، لكنه كان مغلقاً طوال الوقت.

* * *

Slut

دوّى تصفيق الجمهور في نهاية العرض، ووقفوا وصفّروا، وصاحوا:

- برافو.. برافو.

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة صباحاً. خرج سالم مع الجموع الخارجة، أشعل سيجارة واتجه يحث خطاه باتجاه الفندق. كانت تعمل في ذهنه مئات الأفكار السلبية، أسيجد شيخة في الغرفة، أم حدث لها حادث سيِّئ؟ هل يتصل بالشرطة، أو يتصل بالفندق؟

يبعد الفندق عن مسرح الأرينا نصف ساعة، مشياً على الأقدام. أسرع الخطى، حتى وصل إلى الفندق، ضغط على زرّ المصعد. كان عامل يمسح أرضية مدخل الفندق، فتح باب المصعد، ودخل سالم وضغط على الرقم خمسة.

كان "كرت" المفتاح يرتجف بين أصابعه. فتح الباب فوجد الغرفة مضاءة، ورائحة حموضة وعفونة تملأ أجواء الغرفة. كانت شيخة تنام عارية على بطنها بعَرض السرير،

والقيء يملأ السرير وأرضية الغرفة. كانت نائمة منفوشة الشعر على فستان السهرة، الذي تلطخ و"الكرت" بالقيء، لم يعرف ماذا يفعل، اتجه إلى الحمّام ليجلب فوطة مبللة، لكنه لم يستطع الدخول، فقد كان القيء يملأ الحمّام، على المغسلة، على المرحاض، على الأرض. جلس على كرسي قرب السرير، وأشعل سيجارة. كان منظر اللعاب يسيل من فمها المفتوح بشعاً، وجسمها الملطخ بالقيء ذي الرائحة الكريهة، يثير الاشمئزاز، كان سالم حانقاً لأنه اكتشف سبب عدم حضورها. كان أحد السيناريوهات التي مرت بذهنه، أنها واعدت الشاب الألماني في حمّام المقهى، وتلاقيتا هذا اليوم. وأثار حنقه أكثر أنها لسكرها حتى الثمالة، لم ترَ الفستان والبطاقة، فقد تقيأت عليهما ونامت على قيئها.

شعر بورطة وندم، على هدر مشاعره على إنسانة كهذه:

ـ Slut[17].

قال لنفسه، وبصق على الأرض تقززاً، وخرج من

---

(17) فاسقة.

الغرفة إلى مدخل الفندق ليستنشق هواءً نقياً، وأشعل سيجارة أخرى، مستنداً إلى عمود المدخل. كانت مشاعره مزيجاً من الغضب عليها والغضب على نفسه، والقرف والندم على تسليم جسده ومشاعره لهذه القذرة.

اتجه إلى كراج الفندق، وركب دراجته النارية، وانطلق بها خارج مدينة فيرونا، ظل يقود بأقصى سرعة على الطريق، لا يعلم مَا وجهته. كان الهواء يُسيل دموعه وسوائل من أنفه، يمسحها بكمّه بين فترة وأخرى. كانت قيادة دراجته بهذا الشكل، هي ما يمنع أفكاره من التدفق. قاد لعدة ساعات، حتى بدأ يفتح لون السماء، وتظهر خيوط الفجر، وتتضح قمم الهضاب. أوقف دراجته في مكان عالٍ، يطل على وديان وأنوار قرى صغيرة من بعيد. جلس على صخرة يراقب المنظر الأخاذ. كانت نسمات الفجر منعشة، أشعل سيجارة بعدما شعر بصفاء ذهنه.

من ماذا يهرب؟ وإلى أين؟ والمشكلة في داخله، هو من سمح لنفسه بالانسياق في علاقة واهمة، هو من اختار من بين كل النساء، امرأة عاهرة غجرية، لا تقيم وزناً للالتزام، والحب لديها يأخذ معاني مختلفة، لكن هي

كذلك. المشكلة في خيانته هو لمبادئه، ووقوعه عند أول خطوة في الحب، ألم يكن مرتاحاً ومنسجماً مع نفسه طوال السنوات الماضية؟ ألم يكن محصَّناً بشكل كافٍ، من غدر الأنثى؟ وهل كان شعوره حقيقياً، أم أن إيحاء الحياة السابقة هو السبب؟

هو لا يريد أن يخوض تجربة العودة للحياة السابقة مجدداً، وخاصة أن المشاهد والمشاعر تتشابه إلى حدّ النسخ. فكل عودة للماضي نبوءة لما سيحدث مع شيخة، أو قد يكون هو من يسقط الماضي على الحاضر. بعدما كان هو من يصنع ظروفه، أصبح الظرف يصنعه، وهو كالمنقاد بلا إرادة، بشكل قدَري، ولعل هذه التجربة كانت كافيه ليفقد الزمام، أو يصدق بشكل خرافي أن علاقته مع شيخة مصيرية.

ركب دراجته النارية، متجهاً إلى فيرونا، وقد أصبح قراره واضحاً، الآن يعرف ماذا يريد.

لا يفنى ولا يستحدث من عدم

على كرسي منزوٍ في باحة الفندق، غفا سالم في مكانه وهو ممسك بالجريدة. كان الوقت ظهراً، وعند وصوله سأل موظفة الاستقبال، إن كانت شيخة قد نزلت، فأجابت بالنفي، فعرف سالم أنها ستستيقظ في وقت متأخر.

كانت غفوته عميقة، لأنه لم ينم طوال الليل، وليس لديه مكان ينام فيه، نام بعمق فاستدعى عقله الباطن أحلاماً وصوراً، لربيكا وجون، وله ولشيخة، بتداخل وتوحُّد، وكأنه مكان جون في الماضي.

* * *

وقفت ربيكا دامعة العينين أمام جون، الذي ما زال ممسكاً بريشة الكتابة. كان وجهه ثابت الملامح كقناع

فلورنسي. تقدمت ربيكا وجثت أمامه، وأمسكت بنطاله باكية:

- رجاءً جون اغفر لي.

ظل جون صامتاً ينظر إلى البعيد، لا يعرف من يجب أن يغفر لمن، وكيف آلت الأمور لتكشف عن شخصيتها الشائنة، وعن ضعفه غير المبرر أمام هذه الفتاة، التي لا تشبهه في شيء، هو الذي كان يعتبر نفسه لعوباً ماجناً، لا يمكن أن يتصرف كشرير، كما اكتشف هذا الجانب فيها، قالت له:

- صدِّقني جون، كانت ممارستي للجنس مع هؤلاء الضباط شكلاً من أشكال الانتقام منك.

اتسعت عيناه بدهشة كبيرة، فهو لم يكن يعلم أن الأمور تطورت لهذه الدرجة، فقهقه بصوت عال، ونفض رجله وسار بعيداً عنها، وقفت وأكملت:

- وعرفت من أحاديث النساء، أن لا ذنب لك فيما حصل، وظلت المرأة تتباهى بما فعلته معك.

امتعضت ملامحه تقززاً، متسائلاً كيف وضع نفسه في

هذا الدرك، كيف ورّط نفسه بحب من لا تستحق الحب، والغريب أنه لم يكرهها في تلك اللحظة، بل أشفق عليها من نفسها. اقتربت ووضعت رأسها على ظهره راجية:

- أنا أحبك، لا تتركني رجاءً، افعل بي ما تشاء.

ثم واجهته قائلة:

- اضربني رجاءً.

لم يحرِّك ساكناً، فمسكت بكفّه وضربت نفسها:

- اضربني، اضربني، فلن أرتاح حتى تعاقبني، اضربني رجاءً.

استغرب جون إلحاحها. لكن لعلّ ذلك ما سيريح ضميرها، ويهدئ من ثورته. ودون أن يفكر طويلاً، صفعها على وجهها، فوقعت على ركبتيها لاهثة مثارة. نظر جون إلى وجهها المحمر، وإلى عينيها اللتين تفضحان رغبتها العارمة، وهي تقول بصوت مثير:

- خذني الآن، وعلى الأرض إن أردت، خذني الآن وبقوة.

أثار هذا الموقف جون، رغم مفاجأة ما حدث،

فرفعها من ذراعيها، ثم دفعها على السرير، فزاد ذلك من إثارتها وتأوهاتها، فغابا في قبلة وحشية طويلة.

* * *

سمع سالم جون يقول له، بعد أن رفع رأسه من على ربيكا:

- الحب طاقة، والطاقة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، ولكنها تتحول وتنتقل عبر المكان والزمان. ولذا ستصلك هذه الطاقة فتصبح أنت أنا، وهذا يعني أن هناك في عصري شيئاً لم يحل في علاقتي مع ربيكا، أو انتقلت روحي إليك لكي تجيب عن السؤال، أو تتجنب ما حدث في هذا العصر.. سالم، سالم هل تسمعني؟ سالم ..

فتح سالم عينيه ليجد شيخة أمامه تناديه، كان وجهها يشبه وجه ربيكا، فقال:

- ربيكا؟

فردّت شيخة مستفسرة:

- "شنهو"؟!

مسح سالم وجهه وقال:

- "الظاهر نمت، كم الساعة الحين"؟

نظرت شيخة إلى ساعة الحائط فوق طاولة الاستقبال، وقالت:

- "حوالي أربع العصر".

كان يبدو على وجه شيخة الاصفرار والمرض والإنهاك، ولاحظ سالم كدمة داكنة على خدها، لكنه لم يُبدِ أية ملاحظة، فقط قال لها دون أن ينظر إلى وجهها:

- "نمت زين"؟

خفضت شيخة رأسها وقالت:

- "سالم أنا آسفة".

صمت سالم للحظات ثم سألها:

- "تشربين قهوة"؟

لم تجبه، فطلب من النادل كوبي قهوة أمريكية، جلست على الكرسي أمامه، وظل يدخن ثم قال:

- "أنا حجزت للكويت باكر، ورجعت السيكل لشركة التأجير".

قالت في شبه ندم:

- "سالم أنا آسفة ما كنت أدري".

فقال مقاطعاً:

- "أنا لازم أرجع، عندي ارتباطات في الكويت".

اقتربت منه، ووضعت كفها على ركبته:

- "ما كنت أدري".

نفخ دخان سيجارته:

- "أنا بس قلقت عليك".

خفضت رأسها، فأكمل:

- "بس إن شاء الله استانست مع الألماني"؟

* * *

عندما استيقظت شيخة عصراً، وهي تعاني من صداع شديد، وجفاف في الفم، وألم في كل عضلات جسمها، سعلت وتلفتت كي تتأكد أين هي، إذ لا تذكر كيف وصلت إلى غرفة الفندق في الليلة الماضية، انقلبت على ظهرها وحدّقت إلى السقف بشكل ضبابي، محاولة التقاط وجمع شتات ذاكرتها، كان الجفاف يجعل جسمها يرتجف، فنهضت واتجهت بشكل مترنح إلى الثلاجة، وتناولت قنينة مياه معدنية، وشربت ما فيها بالكامل، دفعة

واحدة، ثم اتجهت إلى الحمّام وفتحت الدش على قِمّة رأسها، وفركت جسدها حتى احمر.

عندما خرجت من الحمّام، كانت أكثر صفاءً، وهالها منظر القيء والفوضى في أرجاء الغرفة، ثم لاحظت الثوب الأسود الذي لطخته ودعكته تحتها، ولاحظت الحذاء ذا الكعب العالي، ورفعت البطاقة وتذكرة الأوبرا، وقرأت "أحبك".

أمسكت بالثوب ورفعته أمام عينيها، وقاسته على جسمها من الخارج، اغرورقت عيناها، كانت خجلة من نفسها، من منظر الغرفة، والفستان الملطخ، وحالاً فتحت هاتفها النقال، فوجدت إحدى عشرة مكالمة من سالم، لم يرد عليها، فاتصلت برقمه عدة مرات، لكن هاتفه كان مغلقاً.

جلست على طرف السرير، محاولة جمع ذاكرتها المبعثرة، واستدعاء ماحدث في الليلة الماضية، ثم مسحت بأصابعها مكان ألم تحت عينها، وكأنها كانت تريد أن تقرأ الأحداث من خلالها.

* * *

في اليوم السابق لأمس، عندما كانت تجلس مع سالم في المقهى، جلس في مقابلها ثلاثة شبان وفتاتان، بتسريحات شعر غريبة، وأوشام وأقراط تثقب عدة أماكن في أجسادهم، كانت إحدى الفتيات حليقة الشعر تماماً، والأخرى صبغت شعرها بلونين بنفسجي وأصفر، وكنّ يلبسن ملابس قصيرة جداً وغريبة، تظهر معظم أجسادهن، ولم يكن الشباب أقل غرابة بمظهرهما، وأصباغهما.

كانوا صاخبين بلغة ألمانية، فوضويين بشكل لافت، وهذا يعجب شيخة بشكل أو بآخر، تعجبها هذه الحرية غير المحدودة، ولاحظ الشاب الذي يجلس قبالتها، أنها كانت تحدّق بهم، فابتسم لها، وأرسل لها شراباً على حسابه، وعندما نهضت باتجاه الحمّام، فهم الشاب مقصدها فتبعها بدوره، وعند باب الحمّام تبادلا حديثاً، وقال لها:

- سنحتفل غداً، ونمرح كثيراً في حانات المدينة، لماذا لا تشاركيننا.

كانت شيخة مهيأة، فردت:

- لا مانع لدي.

أعطاها الشاب الألماني، هاتف وعنوان الفندق الذي يسكنون فيه، على أن يلتقوا جميعاً في الغد.

وفي ضحى اليوم التالي، وبعد أن قالت لسالم، إن لديها مشاريع تسوُّق، وبعد خروجه، اتصلت بمنفريد وهو اسم الشاب الألماني، وتواعدا على اللقاء في مكان معروف، لبست بنطالاً قصيراً جداً، و"تي شيرت" يظهر بطنها وظهرها.

وبعد ما يقارب الساعة، التقتهم على ناصية زقاق، كانوا يشربون البيرة، وهم جالسون على عتبات كنيسة تاريخية، حيّوها بحرارة، وقبّلها منفريد على شفتيها، وأعطتها إحدى الفتيات، بقايا زجاجتها.

وتسكعوا في الشوارع والحانات الرخيصة، ودفعت شيخة في غالب الأحيان ثمن مشروباتهم، كانوا يتصرفون بشبه إباحية، دون اعتبار لأحد، يتبادلون القبل واللمسات بشكل فج، ولاحظت شيخة، أن كل شابّ يقبّل كل الفتيات، لا أحد مخصص لأحد، فأعجبتها هذه الحرية اللامحدودة، فلم تمانع تقبيل الشباب لها، واستمتعت بهذا الانطلاق والمرح.

وفي المساء، أخذوها إلى نادٍ ليلي، كل الشباب والشابات فيه يتشابهون في أشكالهم وملابسهم، كانت الموسيقى صاخبة مجنونة، من نوع "هافي ميتال" Heavy metal، وكان الروّاد يرقصون بجنون، و"يدلقون" الشراب على أجسادهم، كان رقصهم داعراً، أشبه بممارسة الجنس بالعلن، وقدّموا لشيخة مشروباً قوياً رخيصاً ذا رائحة نفاذة، وعرضوا عليها سيجارة مارجوانا، فقبلتها ودخنت فانتشت، ورقصت طوال الليل بجنون، ولم تكن تعي تلك الليلة من كان يرقص معها، ومن كان يقبِّلها.

وما تذكرته، أنها وجدت نفسها في غرفة نُزُلٍ متواضعة، تفوح منها روائح العفونة والخمر والبول والعرق، دخلوا الغرفة مترنحين صاخبين، وانبعثت من المسجل نفس نوع موسيقى النادي الليلي، وخلعوا ملابسهم ورقصوا عراةً، ودارت بينهم سجائر المارجوانا، وزجاجات الخمر الرخيص، ولاحظت شيخة بشكل ضبابي، وكأنها تشاهد فيلماً، أن فتًى يمارس الجنس مع فتاة دون مبالاة، ثم أصبح الجنس جماعياً، وفي خدَرها انساقت معهم، فلم تعلم من كان يمارس الجنس معها،

سواء كان شاباً أو شابة، ولاحظت من خلال ضبابيتها، شاباً يتذلل لفتاة، فتضربه وتأمره بأن يقبّل قدمها، فصرخت شيخة:

- أحب أن أكون عبدة، أحب أن أعاقب.

فضربوها بالحزام على ردفيها، وامتطوها كحصان، وتناوبوا عليها الفعل نفسه، وبعدها حدث لها ما يشبه الإغماء، لم تعد تذكر ما حدث لها بعد ذلك، ولا تذكر كيف وصلت إلى فندقها، أو من أوصلها.

فينوس

شعر جون هوبكنز برغبة شديدة في الاستحمام، بعد جهد الممارسة الوحشية مع ربيكا، شعر بأنها لم تكن إنسانة، بمعنى فينوس وأفروديت، كانت وحشاً هائجاً، لا يهمه غير إطفاء رغبته، ولا يهدأ إلا بعد أن يفترس الطريدة، ويسيل الدم من أنيابه.

شعر بتدنيس لجسده، هو الذي مرت عليه مئات الأجساد، لم يشعر قط بتلويث لروحه كهذه المرة، كطفلة تنتهك براءتها، كان شيطان الإغواء أقوى من أن يقاوم، قاد ضعف تحصيناته، إلى انحدار الشهوة، وشهوة الانحدار.

كان يملك الحق، عندما أمسك كل تلك السنوات عن الحب، فطالما لم يرتبط فهو في أمان، فلا أمان مع الارتباط والعهود، حتى القسَم أمام قسيس الكنيسة، في عقد الزواج، يتحول إلى كذبة كبيرة، وكأنه قسَم على

الخيانة، وعلى إيلام الطرف الآخر، في لحظة القسَم يغدو جسد المرأة مستسلماً للإغواء، كمدينة فتحت أبوابها للغازي باستسلام مذلٍّ ومهين.

لن ينسى منظر والدته، وهي في أحضان القنصل الفرنسي، كان من أبشع المناظر التي شاهدها في طفولته، وظن أنه نسيه، ولكنه ظل في ذاكرته مغلّفاً بحيلة نفسية، ورغبة في النسيان دفينة، كان في الثالثة من عمره.

كان ممسكاً بيد والده، الذي أغمي عليه من صدمة المنظر، والده الذي هام بحب والدته لسنوات، كان يقبّل يديها كل صباح ومساء، لشدة حبه وعشقه لها، ملأ حوائط المنزل بلوحات تمثلها، كلف أفضل رسامي فرنسا وإيطاليا، لكي يخلّدوا وجهها الجميل، وقامتها الرشيقة، لكنه مزق كل تلك اللوحات وحطمها تحت قدميه.

وبعد أن هربت والدته إلى فرنسا مع عشيقها، صاحب والده الخمر ليل نهار، كان ينام على كرسيه في مكتبته، وعندما يصحو كان يستدعي جون، يضمه محاولاً مداواة جروح وحدته وآلامه الصغيرة، ويقول له:

- جون، لا تتزوج يا ابني، فالمرأة خائنة منذ خلقها،

أطاعت إبليس منذ اللحظة الأولى، المرأة تجسيد للكذب والرذيلة، لم تعرف كلمة خيانة إلا كرديف للمرأة، هي الأفعى السامة، التي لا تؤتمن، تلدغك من حيث لا تدري، هي ممثلة إبليس على الأرض.

ثم يبكي بحرقة وهو مستند إلى ساعديه فوق المكتب، ثم يرفع رأسه بعد قليل ويصب لنفسه كأساً، يشرب بشكل بشع، كان منظره يثير الشفقة والخوف في نفس الوقت، كان ينظر لابنه بعينين فارغتين من الحياة، لم يستحم لأيام ولم يأكل، فقط يشرب فينام، يصحو فيشرب، قال لجون:

- إحذر من العسل يا ولدي.

ثم يعبّ كأسه دفعة واحدة، تاركاً الصبي في حيرة وعدم فهم، فيكمل الأب:

- فقد يدس لك فيه سمّ، حاذر فخاخ الأنوثة والضعف المصطنع، وكلمات الحب المعسولة، فخلفها دمار لرجولتك، وانتهاك لكرامتك وإنسانيتك، الوحوش تتخفي بهيئة امرأة.

تدلت رجلا جون وهو جالس على الكرسي ببنطاله القصير، يراقب والده يشرب، وقد ثقل لسانه:

- الحب، هه، الحب وهم إنساني كبير، سينتهي في العصور القادمة، هو شِباك المرأة، كشِباك العنكبوت، الذي يعلق فيه الذباب، لتمضغها على مهل، حتى الفناء، الحب هو نزعة الرجل للتدمير الذاتي.

ثم يصيح بوجه ابنه:

- لا تحب.. لاتتزوج، هل تفهمني؟

فيهز جون رأسه موافقاً، وفي قلبه هلع وحزن وحيرة.

* * *

كانت والدته تعاقبه بالجلوس في زاوية معيّنة في المنزل، عندما يكون شقياً، يظل جالساً في هذه الزاوية، حتى يعتذر ويعلن أنه لن يعود لهذا السلوك مرة أخرى، ولم يكن يسمح للمربيات أن يتدخلن في عقاب الأم، وحتى مدرّسته التي تأتيه إلى البيت، كانت تعاقبه بالجلوس في زاوية الغرفة، عندما يتصرف بشقاوة أو يهمل دروسه.

ثم اكتشف أن العقاب يطول، عندما يزورهم القنصل الفرنسي، كان يجلس ساعاتٍ على كرسي العقاب، لا يستطيع المغادرة وكأنه ملصق بالصمغ على هذا الكرسي،

وكان يشعر بملل كبير، فكان يكلم أشخاصاً وهميين، مستخدماً خياله، وكان أحياناً يبول على نفسه، فيحصل على عقاب آخر، وكانت والدته تعلم بأنها إذا تركته مع المربية، قد يأتي ويفتح الباب عليها ومع عشيقها، لكن هذا العقاب، يضمن عدم حركته من مكانه لأيام.

كره سجنه هذا. إنه سجن بلا قيود أو قضبان، فقط قيود نفسية، تشعره بالظلم والعجز. كل قيد في الدنيا أياً كان نوعه، كان يجعله يستدعي مشاعر سلبية، مثل الغضب والحزن والخوف، ومشاعر أخرى لا يعرف تفسيرها. كان جلوسه في الزاوية أقسى عقاب، كان مؤلماً أكثر من الضرب، وخاصة أن هذا العقاب كان وكأنه باختياره. وتساءل عندما كبر، لماذا لم يقم من مكانه، إذ لو فعل لما عرفت والدته بذلك، هذه الكوابح الداخلية، جعلته يكره أي شكل من أشكال القيد.

وفي مساء كئيب، سُمِع في البيت صوت طلقة نارية، قادم من مكتبة والده، فهُرِع الخدم إلى المكتبة، واندس جون بين أرجلهم، فرأى والده مستلقياً على كرسيه، فاتحاً

فمه، وبقعة حمراء على صدره، كان المنظر فاجعاً لدرجة الصدمة، وعدم القدرة على البكاء.

* * *

أيقظ سالم نفسه من غشية التنويم، وشعر بترجرج القطار متجهاً إلى مدينة ميلانو، فرغم أنه قرر في وقت سابق أنه لن يكرر تجربة العودة إلى الماضي، إلا أنه قرر تسلية نفسه، وتقصير ساعات الرحلة، وكانت الرغبة في معرفة المزيد عن حياته السابقة، كمسلسل يتشوق لمتابعته، قال لنفسه:

- ولكن والدتي لم تخن أبي.

تساءل لماذا تكررت معه أحداث الماضي، فتاريخه يختلف عن تاريخ جون هوبكنز، وظروف حياته التي شكّلت قناعته حول الزواج والقيد، لكن لا شك في أن رؤية والد جون عن المرأة والخيانة صائبة، فسالم لم يكن يثق بالمرأة وارتباط الحب، ثبت ذلك بدون شك مع شيخة التي انساق وسلَّمها قلبه، وطعنته عند أول غفلة منه، وتقول:

- "هذه حريتي الشخصية".

من يستطيع أن يجادل الحريات الشخصية؟ لكن هل تتناقض الحرية الشخصية مع الحب؟ ربما، لأن ذلك كان موقفه على الدوام، قبل أن يسهو عن مبادئه، كان مؤمناً على الدوام، أن لا أمان مع المرأة، غادرة كالذئب، وتذكّر بيت شعر كان والده يردده دائماً يقول:

- "الديك يذن ولو عليه الجنابة والذيب ما يومن لوكان صاحبك"[18]

وعندما سأل والده عن معنى البيت، قال له:

- "البدوي في الصحراء، لما يجي الليل ويشب نار، يظل قاعد وبندقه بايده، ويظل الذيب يطالعة من بعيد، وهو رابض قباله، ما يهجم عليه، بس يناظره فيظن البدوي أن الذيب صاحبه فيأمن له، لكن الذيب في الحقيقة ينطر تغفو عيون البدوي فيهجم عليه، يعني لا تامن للذيب، حتى لو تظاهر بصداقتك ومحبتك".

نسي هذا البيت من الشعر، لكنه استحضره وهو ينظر

---

(18) من قصيدة للشاعر بديوي الوقداني.

إلى الحقول والأبقار، عبر نافذة القطار، فهل كان نفوره من الارتباط حذراً تاريخياً؟ حذراً جلبه معه من حياته السابقة؟ هل مصدر كرهه للقيود، كان بسبب عقاب والدته له في الحياة السابقة؟ لا يدري، ولكنه بالتأكيد يعرف في قرارة داخله، أنه يجب ألاّ يرتبط شعورياً أو من خلال أي شكل من أشكال العقود بامرأة، ويعرف الآن أنه يملك كل الحق في موقفه هذا، فتجربته مع شيخة أفضل برهان. كل النساء اللواتي عرفهن وتركهن بسلام، لم يشعرنه بهذا الشعور المؤلم والمهين، رغم أنه ليس وصياً عليها، وليس هناك أي اتفاق على الالتزام في العلاقة، أو الاكتفاء بالطرف الآخر، لكنه مع ذلك لا يعلم لمَ لمْ يزل يشعر بعاطفة وضعف تجاهها، كالسجين الذي وقع في عشق سجّانه، يكرهه ويحبه في نفس الوقت. ربما لو ألحت بطلب الغفران لغفر لها، ولكنها قالت بصلافة وفسق:

- "هذه حريتي الشخصية".

وكأنها تقول أنا حرة بأن أكون عاهرة، من يجادلها في ذلك؟ لكن الحرية شيء ملتبس بالنسبة لنا نحن البشر، مثل الحب علاقة ملتبسة، نريدها ونرفضها بنفس الوقت،

نريد القيد باختيارنا وفي العلن، ونكرهه في السر، يسعدنا ويتعسنا بنفس اللحظة.

وصل إلى محطة القطارات، ومنها أخذ تاكسي لمطار ميلانو. طائرته تغادر إلى الكويت مساءً، فكان لديه وقت للتسكُّع في محلات ومقاهي المطار. وأثناء ذلك تذكر شيئاً، ضغط على أرقام هاتفه النقال:

- ألو، جيوفانا؟ Hi.

صمتت جيوفانا لثوان، وكأنها تريد استيعاب صوته، ثم ردت بفرح وانفعال:

- Hi سالم، come stai[19].

- أنا بخير، وأنت؟

- بخير، أعمل كما هي العادة.

- وكيف هي والدتك؟

توقفت قليلاً، وكأنها نسيت الموضوع، ثم أجابت:

- أفضل، أفضل، أما زلت في إيطاليا؟

- أنا في مطار ميلانو، سأغادر إلى الكويت بعد بضع

---

(19) كيف حالك.

ساعات، وقلت ليس من المعقول أن أسافر دون أن أسلم عليك.

صمتت لثوان، ثم قالت بصوت حزين:

- خسارة أنك في مطار بعيد، ولن أستطيع أن أراك، ولو كنت في مطار روما..

- It's ok جيوفانا، فقط أحببت أن أشكرك على الأيام الممتعة التي قضيناها معاً، أنت صديقة رائعة.

غالبت نبرة الحزن، واستجمعت مرحاً في صوتها، وقالت ممازحة:

- ربما أزورك في الكويت.

- نعم يسعدني ذلك، لكن الأكيد أنني سأراك في إيطاليا في وقت قريب.

- سنتهاتف، ونتواصل عبر الإيميل إذا سمحت لي.

- بالتأكيد جيوفانا، فنحن ما زلنا أصدقاء كما كنا، أليس كذلك؟

صمتت قليلاً، وشعر سالم بأنها تمسح دموعها، فقال بصوت عميق:

- جيوفانا.

ردت وهي تنشج:

- طبعاً، طبعاً سالم.

- طيب، أودعك الآن، نهار سعيد، إبقي بخير، إلى اللقاء.

بنفس الصوت ردت:

- سأفتقدك.

* * *

رغم أن "سالم" نام بقربها على السرير، إلا أنه كان مديراً ظهره لها، ظلت تتقلب على السرير، ولما لم تستطع، لبست بنطالها الجينز، وخرجت من الغرفة، وذهبت إلى حانة الفندق، في الدور الأرضي.

كان وجهها ما زال مرهقاً من سهرة الليلة الفائتة، لكنها احتاجت لبعضة كؤوس تساعدها على النوم، وخاصة مع دولاب عقلها الذي لا يريد التوقف، فتارة تحاول أن تستجمع ذاكرتها، حول ما حصل مع الألمان، وتارة تفكّر بغضب على سالم، لأنه لم يخبرها عن الحفلة مسبقاً،

ورغم أنها كانت مفاجأة لطيفة، إلا أن الظرف حولتها إلى مشكلة.

لكن ما المشكلة؟ هي تأسف على إتلاف الفستان، لكنها لا تأسف على سلوكها، فهي إنسانة ناضجة حرة، فكيف يستفزها بسؤاله:

- "إن شاء الله استانست مع الألماني"؟

من هو حتى يوبخها، أو يلمح إلى أن ما فعلته كان خطيئة؟ ويبدو أن تخلُّف الرجال الكويتيين وراثة، في جيناتهم، مهما بلغوا من علم أو مكانة. يفكرون ويتصرفون دائماً وكأنهم سي السيد، يحق لهم ما لايحق للمرأة، ويطوّعون حتى الأمثال الشعبية لصالحهم:

- "الرجال شايل عيبه".

وكل ما في المرأة، وكل ما يصدر عنها هو عورة، هي العيب بذاته، خلقت فقط لإمتاع الرجل، لا يحق لها الحرية والاستقلال، لا يحق لها أن تكون أذكى من الرجل، أو أكثر نجاحاً منه، لا يحق لها التفكير، لا يحق لها التصرف إلا بإذن من الرجل. حتى سالم وهو يعد مفاجأة لها، لِمَ لمْ يأخذ إذنها مسبقاً؟ لماذا افترض أنها

ستوافق على الحفلة، أو على شراء فستان لها؟ أين هي من كل ذلك؟ فهو من يقرر، وهو من يختار.

ما حدث هو سوء فهم برأيها، لايتطلب قراراً بالسفر، فهما ليسا بزوجين، حتى يزعل الواحد من الآخر، كل منهما حرّ بتصرفاته. هي اعتذرت فيما يخص سوء الفهم، لكنها إن سهرت، أو اختارت شخصاً لتمارس الجنس معه، فهي حرة ولا أحد وصي عليها، لذا استفزها سؤاله، مما حداها إلى الرد بقوة:

- "هذه حريتي الشخصية، ومحد يقدر يتدخل فيها، قلت لك آسفة على الحفلة والفستان، ما كنت أدري، لكن ما أسمح لك تتدخل في حياتي الشخصية، أنا حرة أسهر مع ألماني أو أفريقي أو صيني".

بعدها تركته وهي تحمل مشاعر غضب، قد يكون مبالغاً فيه، وكأنها كانت تبرر تغيُّبها عن الحفلة فقط، أو تريد أن تقلب عليه الطاولة.

هكذا يجب أن يُردّ عليه، قبل أن يتمادى أكثر، ويعتقد أنها ملكية بوضع اليد، مستخدماً طعم الهدايا، والكلمات الرومنسية، وهي ليست من هذا النوع من

النساء. لن يستطيع أي رجل بالدنيا وضع لجام عليها، هي مهرة برية منطلقة بالبراري، تعاشر من تشاء من الخيول، وترفض الترويض، ترفض أن تكون ملكية خاصة في إسطبل أحدهم.

قالت لنفسها بصوت مسموع، جعل نادل الحانة يلتفت إليها:

- "هذه حريتي الشخصية".

Denial[20]

بعد لقائهما المحموم، لم يتفق جون وريبيكا على لقاء لاحق، وتركا الأمر للمصادفة باتفاق ضمني، حتى بعد عودة جون إلى مزرعته في الريف، لم يعلنا عن حرب أو سلام في العلاقة، فقط حالة تشبه حالة الهدنة، وتُرك أمر العلاقة عائماً، كان سلوكاً انتهازياً من الطرفين.

* * *

(20) إنكار.

بالنسبة إليها

لديها فوبيا الفقد، لا تريد أن تفقد علاقة، حتى وإن كانت احتياطية، حتى وإن كانت قد شبعت منها، مثل فرائس الضبع، تخبئ الجيفة لتعود إليها، في حال عدم صيدها لطريدة جديدة.

لكنها كانت تردّ بقسوة وفظاظة، كل رجل يتودد إليها، وتكون قد شبعت منه، شاعرة بقرف، متصرفة بتعالٍ معه، وعندما تتعرف إلى رجل جديد، كانت توهم نفسها بحبه، فتغدق عليه اهتمامها، حتى تتعرف إلى آخر، فتبدأ بإهمال الأول، لكنها تحرص على عدم قطع كل الحبال.

لكنها تعترف لنفسها، بأن تأثير جون عليها يختلف، ربما لأنه حبها الأول، حب المراهقة لأستاذها أو طبيبها، وهو الوحيد الذي لا تريد أن تخسره، حتى وإن تطلب الأمر، إعطاء مساحة له، ليتحرك بحرية، طالما ظل

موجوداً في حياتها. لاتريد أن تخسره إطلاقاً، فهو الوحيد الذي أشعرها بمشاعر مختلفة، حقيقية، ذات عمق في التأثير، لكنها بطبعها لا تحب البقاء في مكان واحد، فترة طويلة. ومع الوقت ازدادت هذه الحالة، وأصبح البقاء أقصر وأقصر، وهذا انطبق على علاقاتها، وعلى كل شيء. أصبحت العلاقة تستغرق ليلة واحدة، فيعتقد الرجل أنها هائمة به، تقول له كل كلام الحب والوله، وكأن العلاقة ستستمر دهراً، وفي الواقع هي تعتقد أو تتوهم أن مشاعرها صادقة في اللحظة نفسها، لكنها ما إن تنتهي منه حتى تلبس ملابسها، وتخرج بسرعة.

وشكّلت علاقاتها المتعددة، والسريعة والعابرة، فضائح انتشرت في المجتمع كله، وقد يكون والدها هو الوحيد الذي لم يعلم بهذه الفضائح، لكن الناس كانت تنظر إليه بشفقة. سببت ربيكا خلافات وانفصالات زوجية، كانت تدمر أسراً مستقرة، وتأخذ الرجال من أيدي النساء، سواء كن زوجاتهم أم لا، سواء كان الرجل وسيماً أم بشعاً، رشيقاً أم بديناً غير مهم، المهم أنها تمتلك الرجل وترضي مرضها الذي وصلت فيه مرحلة الإنكار، أو الـ denial،

فهي لا تريد أن تعترف بأن ما تفعله حالة مرَضية، أو أمر غير طبيعي.

والغريب أنها كانت تبكي بحرقة وقهر، عندما ترى امرأة أخرى قد اصطادت أحد الرجال، حتى وإن كان ممن كونت معه علاقة في السابق. كانت تصاب بغَيرة مرَضية، تجعلها تكسر الأشياء بغضب، وتمزق فساتينها، وتحلم بأن المرأة تضحك عليها، وعلى خسارتها في اللعب، فكانت تفعل أي شيء، حتى وإن كان دنيئاً لتحصل على الرجل، حتى وإن تطلّب الأمر تشويه سمعة المرأة التي يرافقها.

وفي إحدى المرات، ذهبت إحدى الزوجات تشتكي عند والدها، الذي كان قاضياً مرموقاً، أن ربيكا أخذت زوجها منها، ويجب أن يفعل شيئاً ليخلص الأُسر من شرورها، فما كان من الأب السبعيني، الذي ينتظر أحفاداً من ابنته، إلا أن استدعى ربيكا، وهددها باتخاذ إجراءات قانونية بحقها، وفضحها عند والدها الذي قد تطاله الإجراءات القانونية.

بكت ربيكا، وانهمرت دموعها بغزارة، وتوسلت إلى الرجل، ووقعت على حذاءيه تقبّلهما:

- رجاءً يا سيدي لا تخبر والدي، فهو رجل طاعن بالسنّ، وقد تقتله الصدمة، ولن أنسى جميلك ما حييت.

تمسكت برجليه وهي تنتحب:

- رجاءً يا سيدي، سأفعل كل ما تطلبه مني، أي شيء على الإطلاق، اعتبرني عبدة لديك، إجلدني، احبسني، قيّدني بحزامك، سأطيعك وسأقبّل قدميك، وسأشكرك على عقابك القاسي: أنا طفلة شقية تستحق العقاب.

كانت يداها ترتفع وتتسلق رجلي القاضي، ثم تطوّقهما وتلصق وجهها برجليه:

- أرجوك يا سيدي، سأفعل أي شيء، أي شيء، فقط لا تخبر والدي.

وبالفعل إنتهت المشكلة على فراش القاضي، وتعهد منها أن تبتعد عن زوج ابنته، وأن تأتيه كلما طلبها، واستمتع القاضي بعقابها، بجلدها عارية بالحزام، واستمتع برضوخها له، وبشبقها الشاب.

* * *

بالنسبة إليه

رغم أنه عاد إلى حياته السابقة، وإلى مغامراته النسائية، التي حرص على أن لا تعرفها ربيكا، فتتصرف بجنون الغيرة، إلا أنه لا ينكر أن ربيكا قد تكون المرأة الوحيدة التي تجعله يفكر فيها، ويشتاق إليها من دون جميع النساء اللواتي عرفهن. هو لا يعرف لذلك سبباً، ففي قرارة نفسه يريد التخلص من هذه العلاقة ونسيانها للأبد. فرغم أنه يحب أن يعيش حراً لعوباً، إلا أنه لا يستيطع الفكاك من أسر هذه الفتاة لتفكيره. ولو كانت امرأة أخرى لما فكر حتى في تحيتها من بعيد. فالفضائح التي اقترفتها ربيكا، أزكمت الأنوف، وسمع حكايات سافرة من رجال ونساء، عن فضائحها.

لكنه كان أحياناً يطلب لقاءها بشكل سرّي، وكان يغضب إن اعتذرت لانشغالها، ويشعر أنها فضّلت رجلاً آخر عليه. وحتى لا يشعر بالضعف والمذلة، كان يطلب

مقابلة أي امرأة يعرفها، وكن يهرعن إليه، وكان يتصرف معهن بعنف انتقامي، يثير دهشتهن، فيعتقدن أن السبب هو حبه الجامح لهن.

لكن ربيكا عندما تلبي رغبته بالحضور، كان ذلك يشعره بالمذلة أيضاً، وكأنها تفضلت عليه بهذا اللقاء، ومنحته شرف النوم معها. لكنه بعد أن ينتهي منها، يشعر بمهانة، ويتصرف بفظاظة معها. وفي مرة سألها:

- لماذا تقيمين علاقات متعددة، ألا يكفيك رجل واحد تحبينه وتتزوجين منه؟

صمتت، ولما ألح:

- ألا تعتقدين أن ذلك سلوكٌ مرّضيّ؟

كانت الدموع تنساب من عينيها وهي تقول:

- لماذا تصر على جرحي وإهانتي؟

كان يشعر بغضب داخلي، فهو لا يعلم إن كانت في حالة إنكار لحالتها، أم أنها لا تريد أن تسمع الحقيقة. كان يغضب من اعتبار نفسها بريئة، وخاصة أنها ردت:

- لماذا تصر على لقائي، إذا كنت تعتبرني عاهرة؟ لماذا تسمعني كلمات الحب، قبل وأثناء الجنس،

وتجرحني بعده. إذا كنت لا تريد أن تراني فقلها بصراحة، أنت تعلم جيداً أنني أحبك، ولا أحب أحداً غيرك.

فكان يصرخ غاضباً:

- كيف؟! وأنت تقولين هذا الكلام لألف رجل؟!

تلبس ملابسها دامعةً:

- يكفي إهانات جون.

عندما خرجت من بيته، رأى الخدم عينيها المتورمتين، وأنفها الأحمر، بينما كان جون يصارع غضبه وألمه. يغضب لأنها تصدق نفسها، ويتألم لأنها خرجت بهذه الحالة، كان يرتبك ويتشوش، فهل يعقل أن تكون صادقة؟! لماذا لم يتركها في حالها، تفعل ما تريد، ويأخذ هو ما يريده منها؟ لماذا يحكم عليها؟

ثم يفكر أنه لن يعود إليها، وقد تكون هذه أفضل فرصة للقطيعة، ماذا يريد منها؟ هي ليست المرأة الوحيدة في هذا العالم، هناك العديد من النساء المتوقفات عند إشارة منه، وعلى استعداد لمنحه كل ما يحتاج من مشاعر وجسد. فلماذا يجري وراء هذه المرأة ذات السلوك الطائش، المريض والمقزز؟!

لكنه يعود بعد شهر، يبحث عنها ويعتذر إليها، ويغضبه ذلك، يغضبه هذا الضعف منه تجاهها، يغضبه أنه لم يحافظ على وعده لنفسه، يغضبه عجزه عن الابتعاد عنها، فهل يحبها فعلاً، رغم أنها لا تستحق الحب أو الاحترام؟

اكتمال الضياع

عندما استيقظت شيخة من نومها الثقيل، وبعد الكؤوس التي شربتها الليلة الماضية، لم تجد "سالم"، ولما ذهبت إلى الحمّام لم تجد أدوات الحلاقة، وفرشة أسنانه، ولم تجد ملابسه في الخزانة، كان هناك عقب سيجارته في منفضة الحمّام، أمسكتها بيدها ولم تعلم لمَ تفحّصتها، أو عماذا كانت تبحث، وتركت ناظريها يجوسان بالغرفة، التي كانت مثل مضارب الخيام، عندما يرحل سكانها، كالطلل يحكي قصة من سكن فيه، فشعرت بقليل من الضياع والوحشة.

فالأيام التي قضتها معه، خلقت أُلفة ومشاعر جميلة بينهما، ألفت عادات نومه، واستيقاظه، وحلق ذقنه صباحاً، شعرت بأنهما ينتميان الواحد إلى الآخر، كان إنساناً حنوناً، رغم محاولة إظهار ملامح اللاّمبالاة، على وجهه وفي صوته، فهل افتقدته؟ لا تعلم، ولكن هناك

شيئاً تغيّر في هذا الصباح، شيئاً يشبه الحنين والشجن. رحل من دون كلمة، من دون وداع، من دون حتى كلمة عتاب. لولا آثاره لكان كالحلم الذي تبخر، إثر النوم. على مخدته، علبة سجائر مطعوجة، عقب سيجارة، شعرات صغيرة، تبين أنه حلق ذقنه صباحاً كعادته. تمنت لو أنه نسي شيئاً، حتى تستطيع أن تعيده له في الكويت. كان صدى ضحكته وصوته، يترددان في الغرفة. جلست على حافة السرير، فتحت الستارة وظلت تحدّق بأسقف القرميد، من خلال زجاج الشبّاك.

طلبت إفطارها إلى الغرفة، بعد أن اتصلت بخدمة الغرف، ثم اتجهت إلى الحمّام وفتحت الدش، وانتظرت حتى ظهر بخار الماء، فأدخلت جسدها تحت الماء، كانت لسعة حرارة الماء على جلدها، توقظ حواسها. زادت من حرارة الماء، لتستمتع بألم اللسع، وخاصة على أماكن الكدمات في وجهها وجسمها. أنعشتها رائحة الصابون، وبعد الاستحمام، مسحت بيدها أثر الرطوبة على المرآة، وتلمست كدمة وجهها.

سمعت جرس الباب، وصوتاً مكتوماً يقول:

- room service[21].

لبست روب الحمّام، وفتحت الباب مبللة الشعر، فقال لها الفتى مبتسماً:

- buongiorno[22].

فردت من دون ابتسام:

- bungiorno.

وضع صينية الإفطار على الطاولة، فتفرست في جسده، وسألته وهي توقّع على الفاتورة:

- ما اسمك؟

ردّ بودّ:

- أنتونيو.

* * *

شعرت بسأم، وهي تتجول وحدها، كما شعرت بشجن، لأن كل الأماكن تذكّرها بسالم، وهي لا تريد أن

---

(21) خدمة الغرف.

(22) صباح الخير بالايطالية.

تتذكره، تريد أن تشعر بقوّتها واستقلاليتها، فقد يكون نسيها، أو قد يكون مع إحداهن. أشعل هذا الخاطر غيرتها، فشعرت بشعور ينهشها من الداخل، كان شعوراً أسود، ووهماً يكاد يكون حقيقة ماثلة أمامها. ورسمت سيناريو في ذهنها عن هذه المرأة التي لا تعرفها، وماذا يفعلان في هذه اللحظة.

أزعجها هذا الشعور، وأرادت التخلص منه، فتذكرت منفريد، لماذا لا تتصل به، وتقضي على سأمها، وتدفن مشاعر غَيرتها في النوادي الليلية، وفي أحضان منفريد، أو مع أي كان معها تلك الليلة، ولا تتذكره. أخرجت هاتفها النقال، وبحثت عن اسمه في ملف العناوين، وضغطت على الاسم، فرن هاتف منفريد:

- هلو.

جاء الصوت، فردت:

- ألو منفريد، أنا شيخة.

- من؟!

- شيخة.

صمت قليلاً، ثم قال:

- منفريد سافر.

ضحكت شيخة، ظانة أنه يمازحها وقالت:

- منفريد، ليس هذا وقت المزاح، أين أنت؟

فقال بسأم:

- عفواً الرقم خطأ.

ثم أقفل الخط.

وقفت شيخة تنظر إلى هاتفها مذهولة، وشعرت بذل ومهانة، اغرورقت عيناها وأحست بوسخ وانحطاط يلوثان روحها، شعرت بأنها فاكهة عصرت، ثم رميت بقاياها. تذكرت كيف تناوبوا عليها، ولم يتعاملوا معها كإنسانة. استسلمت لهذه التجربة، تجربة الجنس الجماعي القذر، لكنها كانت ثملة وشبه فاقدة للوعي، بسبب الخمر الرخيص ومخدر المارجوانا. عاملوها كآلة للمتعة الرخيصة، لكن أي تبرير لما انحدرت إليه، يقودها لكراهية نفسها أكثر وأكثر.

مسحت دموعها بكمها، وشعرت بالرثاء على نفسها، وباكتمال الضياع والوحشة، وودت لو تتصل بسالم في هذه اللحظة، ولكنها لن تذل نفسها أكثر من ذلك. وكأنه

كان زمن التخلي، فأولاً سالم، والآن هذا الألماني الذي لا يعني لها شيئاً، فقط كانت تريد مداواة جروحها به، ليطعنها طعنة "بروتس ليوليوس قيصر"، القاضية.

لكن كل معروض مهان، وكل ممنوع عزيز. كان والدها يردد دائماً لوالدتها:

- "لا تمنعيها عن شي، كل ممنوع مرغوب، وهالجيل إذا ما حصلوا اللي يبون بالطيب، حصلوه بالحيلة".

هي البنت المدللة، التي عاشت حياة أمان، ومحبة أُسرية، عز عليها أن تشعر باستصغار ومهانة. جل ما أرادته هو الاختباء تحت لحاف والدها، كما كانت تفعل وهي طفلة، عندما تخاف ليلاً. كان يضمها فتدفن رأسها الصغير في إبطه، فتشم رائحة الأمان، ويحيطها بذراعه فتنام فوراً زافرة أنفاساً عميقة. كانت تعلّق عينيها على باب الروضة، في نهاية اليوم الدراسي، بانتظار أن يأتي ليصطحبها إلى البيت، وما إن يظهر وجهه بين الوجوه، حتى تنطلق راكضة فرحة برجليها الصغيرتين، فاتحة يديها لحضنه، فيثني الأب رجليه، ويفتح ذراعيه، فتتعلّق برقبته بقوة.

ودّت لو تدفع أي ثمن لتعود هذه اللحظات، لكن الدنيا تتغير، والناس والمفاهيم والمبادئ تتغير، لتصبح الحرية والتجربة الشخصية، هي ما يحقق ذاتها، أو هكذا تقنع نفسها وصديقاتها، من دون التجارب بحلوها ومرّها. لن يكون للحياة معنًى، ولن يكون للذات قيمة، فهي يجب أن تكون مصدر الأمان لنفسها، والشيء الذي تخاف منه، يجب الولوغ به.

عادت إلى الفندق، وطلبت من موظف الاستقبال ان يحجز لها، على أول طائرة متجهة إلى الكويت. أنهى الموظف مكالمة مع شركة سياحية، إلتفت إليها قائلاً:

- هناك مقعد على طائرة الغد.

قالت له:

- حسناً، إحجزه لي.

ثم قبل أن تترك كاونتر الاستقبال، سألت:

- أين أجد أنتونيو؟

* * *

شلون ركبك

كان أول ما فعله سالم ثاني يوم لوصوله للكويت، هو الذهاب للسلام على جدته، التي استقبلته كعادتها ب:

- "هلا.. وكل الهلا".

قبّل رأسها وجلس بجانبها، وتشمم رائحة البخور والرازجي من ملابسها وشعرها، ومازحها قليلاً:

- "شالحلاوة يمّا، كل يوم تصغرين".

ضحكت من قلبها، حتى ظهرت بقايا أسنانها في الفكّ الأسفل، وسألته عن رحلته، وأجابها بأوصاف عامة، تتعلق بأشجار الفواكه، والمطر والأجواء الجميلة. ثم تنحنحت وقالت بجدّية:

- "اسمع ياسالم".

فردّ بنفس الجدية:

- "نعم يمّا".

صمتت للحظات ثم قالت:

- "ما بقى بالعمر كثر ما مضى".

- "الله يطول بعمرك يمّا".

استطردت، وكأنها لم تسمعه:

- "أنا أدري أنك ما تبي زواج، وأدري ما يهمك حكي الناس، وأنا بعد ما يهمني، وتدري شكثر أنت عزيز على قلبي من بد الجميع، وأبي أشوفك متزوج قبل لا أموت".

- "اسم الله عليك يمّا، بعد عمر طويل إن شاء الله".

- "يمّا ذريتك، ما يموت بني آدم وعنده ذرية، ما أقول لك حب مرتك، لكن المرا بتجيب لك عيال، وبتشيلك وقت المرض وآخر زمانك، محد بيبقى لك لا أنا ولا أمّك، وأنت بعد تعرف إخوانك أكثر مني، إذا طحت محد بيلتفت منهم لك، وأنت كبرت، واللي كبرك عنده أحفاد، وبسك عزوبية وهياتة".

لم يكن صوتها جاداً كهذه المرة، كانت تتكلم وكأنها تتلو وصيتها، هناك أسىً حقيقيّ في نبراتها، لم يعهده من

قبل، وكأنها محارب يُحتضر، وهو موقف لا يستطيع معه أذيتها، والتمسك برأيه، فسألها:

- "شنهو تشورين علي يمّا"؟

- "تزوج يا وليدي، خل أرتاح".

كان صادقاً وهو يسأل:

- "من أتزوج"؟

تنهدت جدّته لاستجابته المبدإية، وقالت:

- "شايفين لك بنت حمولة طيبة، دارسة ومتعلمة بأمريكا، حلوة وطويلة، وأخلاقها تبارك الرحمن، ومهي صغيرة، عمرها خمس وثلاثين".

- "وليش ما تزوجت لين الحين"؟

أصبحت نبرتها أكثر حماساً:

- "ما كانت تبي تتزوج لين تاخذ الشهادة العودة".

حلل كلام جدته:

- "دكتوراه"؟

- "لا، هي مو دكتورة، هي تشتغل بالجامعة".

عرف أن جدته لم تفهمه، فسأل:

- "أنت شفتيها"؟

انشرحت أكثر، لأنه استرسل أكثر:

- "شفتها تجنن ما شاء الله، وأعرف أمها، كانت معاي في الحج ذيك السنة، وكنت أشوفها في لبنان قبل".

أطرق سالم برأسه، كان يرفض في كل مرة، ففي السابق لم تكن جدته متحمسة، وكان يعرف أنها كانت تطلب منه الزواج بإلحاح من والدته، لكنها هذه المرة كانت تطلب بما هو أشبه بالرجاء والألم، وهو يحب جدته، ولا يحب أن يراها متألمة، رغم أنه ما زال يرفض فكرة الزواج، ولم يستبعد دور والدته في الموضوع، لكن ربما أراد أن يقيس نفسه، بعد ما فعلته شيخة، ولما طال تفكيره، قالت له جدته:

- "أنت بس شوفها وأقعد معاها، لعل وعسى".

ظل صامتاً، شاعراً بأنه ورّط نفسه، بإعطائه الأمل لجدته، فقالت الجدة:

- "ها يمّا، شقلت"؟

تنهد قائلاً:

- "نشوف شالله يكتب".

انفرجت أساريرها، وبانت لثتها وهي تقول:

- "شرايك، أعزمهم يوم الأربعا"؟

ابتسم في وجهها قائلاً:

- "مثل ما تشوفين يمّا، مثل ما تشوفين".

وحتى يغيّر الموضوع الذي أصابه بمشاعر سلبية، سألها:

- "المهم أنت شلون ركبك"؟

* * *

خمّن سالم أن والدته كانت وراء هذا الموضوع، لكن جدية جدته هذه المرة، في طرح الموضوع، جعله يفكر جدياً بأخذ خطوة ترضيهما، سيرى الفتاة يوم الأربعاء، وعندها لكل حادث حديث، لكنه تنازل وقبل أن يأخذ الخطوة الأولى، وهو ما أثار فضول إخوته، وأقاربه، ونساء العائلة، الجميع يريد أن يرى الفتاة التي اختارها سالم، أو على الأقل التي قبل بأن يراها ويتحدث إليها، من تكون، وكيف تبدو؟ كان الخبر أشبه بحدث الموسم، الذي انتشر في قرية تشعر بالسأم، وضخمت النساء الموضوع، ونسجن حوله شائعات، مثل:

- "يقولون إنه يعرفها من قبل، وخطبة أمي سبيكة تمثيلية".

ومثل:

- "يقولون إنها مو حلوة، ومطلّقة وعندها عيال".

ومثل:

- "يقولون مسوية له عمل من أمريكا".

وهكذا، ورغم أنهن متزوجات منذ سنوات طويلة، لكنهن شعرن بالغَيرة والفضول، من تلك التي خضع الوغد لها أخيراً، من تلك التي استطاعت أن تحني رأس هذا المغرور، وتمنوا أن تروّضه كما يروّض مدرب السيرك النمر المتوحش.

كنَّ يتحادثن عبر الهاتف لساعات، وعندما يتصل أزواجهن يجدون الخطوط مشغولة، وكنّ يدعون بعضهن لشرب الشاي، ليفتحن موضوع الخطبة، وينقلن آخر الأخبار، وتطوعت إحداهن بجلب أخبار طازجة، وزارت الجدة، قبّلت رأسها وسألتها:

- "شلون رجولك يمّا، عبد الله يسلّم عليك، والعيال كلهم".

تمتمت الجدة دون اهتمام:

- "شفيها رجولي؟ ما فيها شي"؟

- "الحمد لله، عسى الله يعطيك الصحة والعافية".

تمتمت الجدة:

- "الله يسلمك".

جاء وقت المهمة التي أتت لأجلها:

- "شاخبار سالم، رجع من السفر"؟

ولكن الجدة عرفت ما ترمي إليه هذه المتذاكية، فطردتها صارخة:

- "فيكم بلاغة شف وقلة حيا".

الأربعاء

كانت والدته أشد الناس فرحاً وتفاؤلاً، فلأول مرة يوافق ابنها الأكبر، على مبدأ الخطبة، وعللت ذلك بأنه في الخمسينات من عمره، وآن أوان التعقل والاستقرار، فكل إنسان سيحتاج إلى من يشاركه حياته، في الحلوة والمرّة، قالت له قبل الخطبة بيوم:

- "يا وليدي، جان زين باكر تلبس غترة وعقال، بدال هالبنطلون".

فيسأل مستغرباً:

- "شمعنى غترة وعقال يعني؟ ما يصير الناس تخطب وهي لابسة بنطلون"؟

ترد والدته بحذر، وكأنها تخشى أن يغير رأيه:

- "لأ، بس العقال أكشخ، والبنات يحبون هاللبس".

يزفر من أنفه ويقول:

- "يصير خير".

وفي يوم الأربعاء الموعود، كانت تفاصيل التجهيزات كثيرة، فالجدة أوعزت لابنتها الاتصال بأحد الفنادق الكبيرة، لإرسال بوفيه صغير مع ندل، وطلبت بخوراً مطبوخاً مع العنبر وورد الطائف، وغسل الخدم حوش المنزل، وملئت أرجاء البيت بالورود، وحنّت كفيها، وكحلت عينيها، ولبست مصاغات ذهبية، واستقبلت البنت ووالدتها، اللتين أتتا بسيارة لكزس يقودها سائق، لزوم الاستعراض، وقد أوصت الأم ابنتها وصايا عديدة، بأن تبذل جهدها لكي يقبّلها سالم، فهو زوج لقطة.

لكن "سالم" تأخر، وبدت والدته وكأنها تجلس على الجمر، بينما كانت الجدة أكثر هدوءًا، وظلت الوالدة تبتسم وهي في غاية الحرج.

وسالم لم يتعمد التأخير، ولكنه نسي الموعد ببساطة، كان يقود دراجته الهارلي ديفيدسون على شارع الكورنيش، فالبحر يشعره بالهدوء والتحرر، فكلما شعر بضيق، اتجه إلى البحر، أو ينطلق بأقصى سرعة على الطريق السريع باتجاه البر، وحتى عندما كان صغيراً، ويشعر بضيق أو اكتئاب، كان يفتح أزرار قميصه، ويقول:

- "أبي أشوف البحر".

شعر بأن هاتفه يرنّ، ولما توقف ونظر في الهاتف، وجد أن والدته اتصلت خمس مرات، فردّ على الاتصال، ولما رأت والدته رقمه، ذهبت إلى الغرفة الأخرى، وردت على المكالمة:

- "يمّا سالم وينك؟ الناس تنطرك".
- "أي ناس"؟!
- "نسيت؟ اليوم بتشوف البنية".

قال وهو يضع كفه على رأسه:

- "أيه، والله آسف يمّا نسيت".
- "صار لهم فترة عند جدتك".
- "الحين أجيكم، كلها عشر دقايق".
- "بسرعة يمّا، زتات".

* * *

دخل سالم الصالة التي يجلسون فيها قائلاً:

- "مساء الخير، آسف على التأخير".

ولاحظت والدته أنه كان يلبس بنطلون جينز و"تي

شيرت"، فنظرت إليه بغضب، لكن الجدة التي لا يبدو أنها تكترث بملابسه قالت:

- "هذا ولدي سالم".

ثم التفتت إلى سالم:

- "وهذه ميساء".

نهضت ميساء، فمد سالم يده ليصافحها، فقالت:

- "آسفة، ما أصافح".

صُدم سالم وأُحرج من الموقف، فهو لم يكن يتوقع صدة كهذه، وخاصة أن الفتاة لم تكن محجّبة، وتذكّر أن مثل هذا الموقف، لم يكن يحدث في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين.

ظل ساهماً، يفكر كيف تغيّر المجتمع، وماذا تخبئ العقود القادمة لهذا المجتمع، فالعادات والقيم في تغيُّر سريع، وانتبه إلى صوت جدته:

- "سالم.. سالم".

- "نعم يمّا".

- "قوم يمّا أنت وميساء، قعدو في الصالة الثانية، عشان تسولفون على راحتكم".

نهض سالم ناظراً إلى ميساء وقال:

- "يلا".

ابتسمت ميساء حياءً، وهمست لها والدتها بشيء في أذنها، ثم نظرت في عيني سالم، نهضت وأشار لها سالم بيده كي تتقدمه، جلس قربها في الصالة الأخرى، فسارعت والدته لإقفال الباب عليهما.

كانت ميساء تجلس خافضة رأسها، واضعة كفيها في حجرها، تفركهما وتنظر إلى سالم من تحت حاجبيها، وتخفض عينيها عندما ينظر إليها، لم يعرف سالم كيف يبدأ الكلام، فهذا الوضع جديد عليه، ففي السابق كان يتحدث بحرية مع النساء. طبعاً يتعامل معهن حسب طبائعهن، ولكن أن يجلس مع امرأة ليختبرها، أو يعرفها خلال ساعة، فهذا يشكل ضغطاً عليه، ويضعف تركيزه، وخاصة بعدما رفضت مصافحته. بيد أنه موضوع يمكن بدء الدرشدشة فيه:

- "ليش رفضت مصافحتي، شنهو الفكرة يعني"؟

ردت بفصاحة المتعلمة:

- "ملامسة المرأة لرجل غريب حرام".

رفع حاجبيه:

- "حرام"؟!

وتذكر أن بعض النساء الكبيرات بالسن، كنّ يتحايلن على هذا الموضوع، بلف طرف عباءتهن على الكف قبل المصافحة، لكن معظم النساء كنّ يصافحن، ويضغطن ضغطات خفيفة على كف الرجل أو المرأة دليل الترحيب، فخطر على باله سؤال:

- "ناوية تتحجبين"؟

- "إن شاء الله، بعد الخطبة راح أروح العمرة، وأتحجب عقبها".

فسأل دون سخرية:

- "ليش مو عقب الحج"؟

ردت باسمة باستحياء:

- "إن شاء الله عقب الزواج، أروح أنا وياك".

فكّر باستغراب، كيف تكون متأكدة من أنه سيتزوجها بهذا القدْر؟! من أين أتت بهذه الثقة؟ أخرج علبة سجائره، وأشعل واحدة، فقالت:

- "على فكرة، أنا ما عندي مانع زوجي يدخن، رغم أنها عادة سيئة، وراح أساعدك تتخلص منها".

ضحك كثيراً في داخله، ولولا حراجة الموقف لاستلقى على ظهره ضحكاً على طريقته، ولكنه قال:

- "هذه مو العادة السيئة الوحيدة اللي عندي".

قالت بثقة المحلل النفسي:

- "قول لي شنهي عاداتك السلبية".

إمتص سيجارته، ومع ابتسامة جانبية قال:

- "أنا أشرب".

قطّبت جبينها وخفضت رأسها قائلة:

- "أستغفر الله".

وضعت كفها على ركبته وأكملت:

- "سالم، كل هالأمور راح تتخلص منها بعد الزواج، وبعد الحج".

- "يا سلام"!

قال سالم لنفسه، وتساءل كيف ترفض مصافحته، وتضع كفها على ركبته؟! أكملت ميساء بلغة وعظية:

- "طبعاً ما تبي عيالك يشوفون أبوهم يشرب ويدخّن".

قال لنفسه:

- "عيالي"؟!

ثم التفت إليها سائلاً:

- "ليش"؟!

بنفس اللغة الوعظية:

- "الأب هو مثال لعياله و.. "

رنّ في هذه اللحظة هاتفه النقال، ففتحه مقاطعاً ميساء:

- "ألو.. أهلين هند، شلونك؟.. متى؟ الليلة، وين؟ عندي؟ أيه حياك الله، يعني بعد ساعة، أوكي باي".

اندهشت ميساء من جرأته، كيف يكلم امرأة أمام خطيبته وزوجته المستقبلية؟! ولكن قد يكون بريئاً، ولتتأكد:

- "منهي كانت"؟

- "منهي؟ من تقصدين"؟

- "اللي كنت تكلمها".

تغيرت ملامح وجهه، فقال بحزم:

- "عفواً، أنت شكو"؟

استدركت ميساء:

- "آسفة، موقصدي أتدخل، لكن.. "

قاطعها، وقد بدأ يشعر بالسأم، وبغرابة الموقف:

- "ما عليه، خلّينا في موضوعنا، أنت شنهو دارسة، وين تشتغلين"؟

قالت مستعرضة:

- أنا عندي PHD في الهندسة الكيميائية، وأدرس في جامعة الكويت".

نظر إلى الساعة، فأربكها بهذا السلوك العبثي، لكنه استمر:

- "ما شاء الله.. ما شاء الله".

نعّمت من صوتها وهي تقول:

- "قالو لي أنت شاعر".

- "أيه، أنا شاعر.. تحبين الشعر"؟

- "أموت في الشعر".

- "من حقه تقرين.. عبد السلام النابلسي"؟

- "ما أتذكر اسمه.. بس عندي ديوانه".

استمر في عبثيته:

- "يمكن الشاعر فريد شوقي، أو هاني شاكر"؟

قالت باستغراب:

- "هذا مو كأنه مطرب"؟

- "اسم على اسم".

- "يعني شلون"؟

تملل في جلسته:

- "يعني تشابه أسماء".

حاولت تغيير الموضوع:

- "شنهو هواياتك"؟

نظر إليها باستغراب:

- "مو قلنا الشعر"؟

- "أيه صح".

أربك ثقتها بنفسها، وبدأت تفرك كفيها بقوة وتواتر أكثر، أخرج سالم سيجارة من العلبة، وسألها:

- "تسمحين لي أدخن"؟

ردت بانهزام، مغلّف بتهذيب:

- "طبعاً، طبعاً".

أشعل السيجارة، وقال:

- "تدرين أنا ما عندي سيارة؟ أنا أسوق سيكل".

زادت ربّكتها أكثر، لكنها ردت:

- "عادي يعني شنهو"؟

نظر إلى ساعته وهو يقول:

- "مستعدة تركبين وراي على السيكل، لما نروح مشاويرنا، أو لما أوصلك الجامعة"؟

صمتت خافضة رأسها، دون أن تعلم بماذا تجيب، باغتها بسؤال آخر:

- "تؤمنين بالحياة السابقة"؟

وكأنه يريد تعجيزها، هي الدكتورة الواثقة من نفسها، فاستفسرت:

- "شنهو"؟!

- past life regression؟

فهمت قصده، واعتبرت ذلك اختباراً، فردّت بثقة:

- "ما كو شي هالشكل، الإسلام واضح، وهذه كلها خرابيط وخزعبلات".

هز رأسه وهمهم:

- "هممم".

نهض من مكانه، قائلاً لها:

- "بعد إذنك".

وغادر، أمام دهشتها، ولكنها ظلت مكانها تغالب عبرتها، مر سالم على جدته وقبّل رأسها، قائلاً:

- "مع السلامة".

كانوا مذهولين لدرجة أنهن لم يقلن شيئاً، قفزت أمه من مكانها، ونظرت إلى ميساء في الصالة الأخرى، ووجدتها خافضة رأسها، وبعد قليل سمعوا صوت عادم الدراجة النارية.

شيشة

وضع صبي القهوة جمرة على رأس شيشة شيخة، فسحبت نفَساً عميقاً، وسمعت كركرة الماء، ثم نفثت الدخان من فمها ومنخريها، وشعرت باسترخاء، وقالت لها صديقتها:

- "أيه، وبعدين"؟

سعلت شيخة قبل أن تقول:

- "بس، تعلّمت كم كلمة ألمانية منهم".

سألت صديقتها غامزة:

- "استانست"؟

رفعت شيخة حدقتيها، وانحدر جفناها، وقالت:

- "حدهم عجيبين".

- "منهو أكثر واحد فيهم"؟

نظرت إليها شيخة نظرة استفسار، فأكملت:

_ you know what I mean.[23]

ضحكت شيخة ضحكة قصيرة، وقالت من خلف دخان فمها:

- "والله جاني وقت ما أدري منهو معاي.. واحد ورا الثاني".

- waw.

- yes.

كان خلفهم مجموعة من الشباب، يلبسون جينزات أو بنطلونات قصيرة ضيقة، ويصففون شعورهم بطريقة "spikey"، بعضهم لديه سكسوكة غريبة، وبعضهم كان يلبس عقالاً، كانوا يدخنون الشيشة، ويلمحون لشيخة وصديقتها، بكلمات بذيئة، ولكنهما لم يأبها لهم، اقترب أحد الشباب، ووضع ذراعه على كتف شيخة، ووضع ورقة كتب عليها رقم هاتفه، وقال بوقاحة:

- "اتصلي فيني الليلة".

قالت شيخة:

---

(23) تعرفين ماذا أعني.

- "شيل إيدك".

فردّ الشاب:

- "حاضر، حاضر.. المهم اتصلي قبل الساعة وحدة بالليل، لأن الساعة وحدة عندي مكالمة ثانية".

ورجع إلى طاولته، ورقص أمام زملائه انتصاراً، فأطلقوا صيحات، ورفع من كان يلبس عقالاً عقاله، تحية له.

علّقت صديقتها:

- "صج كويتيين متخلفين".

ظلت شيخة صامتة، فسألتها الصديقة وكأنها تذكرت:

- "وأنت من صجك attached[24] مع الكويتي هالكثر"؟

كانت نبرة شيخة صادقة وهي تقول:

- "والله صج تأثرت فيه وايد، كان غير عن الكويتيين في البداية، لكنه بعدين رجع لطبيعته الكويتية".

- "والألماني، يتصل فيك"؟

(24) تعلقت.

ردّت شيخة بكذبة:

- "يتصل ويدقدق تلفونات، بس ما أرد عليه".

- "ليش"؟

- "مالي خلقه.. طلابة؟ تجربة وانتهت".

سرحت شيخة بعيداً مع الدخان، ومرت عليها أطياف ذكرياتها مع سالم.

* * *

ترددت كثيراً، قبل أن تقرر الاتصال بسالم، فبعد مرور شهر على عودتها إلى الكويت، وشهر من الانقطاع عنه، ألح كثيراً على عقلها، واحتل جزءًا من تفكيرها، كانت تضع سماعات على أذنها، وهي تعمل على مونتاج لأحد الأفلام، عندما تذكرته، كانت تظن أن شعورها تجاهه أصبح محايداً، لكن ذكراه فرضت نفسها أكثر من مرة، على تفكيرها وبالتالي شعورها، كادت مكابرتها باسم الحرية والاستقلالية، أن تقلب هذا الشعور التي تجرؤ وتسميه حباً، إلى شعور عدائي، لكنها تعرف أنها تكذب على نفسها، كما كذبت مرات عديدة، لا تريد أن تعترف

بضعفها وخوفها، رغم أنها ارتعدت خوفاً مرات ومرات، من الوحدة، من الظلام، من الحب نفسه، ووجدته واقعاً لا تستطيع إنكاره مع سالم أو تتجنبه، ولعل ذلك أحد أسباب حقدها عليه. إنه استطاع إصابتها في "كعب أخيليس"، هو الوحيد الذي عرّى ضعفها، وكشف أضعف نقطة لديها، بعدما كانت تظن أنها دفنت قلبها بالإسمنت، الذي لن تؤثر فيه معاول العواطف، وغطت أنوثتها بحراشف الفظاظة.

لكن كل ذلك قد يكون تعبيراً عن خوف، خوف من حقيقة أنها غير حرة وغير مستقلة كما تعتقد، أو كما تكذب على نفسها. استطاع سالم أن يثبت أنها قابلة للكسر، مثل القوارير، ولذا هي تحقد عليه، وتحاول الرجوع إلى وهم التحرر والاستقلالية، فقد بنت تلك الشخصية بدأب، وتدريب مثابر وشاق، وزرعت قناعات تخالف ما نشأت عليه، حتى أصبحت شيخة التي تريد أن تكون.

نظرت إلى هاتفها النقال عدة مرات، ثم أبعدته عنها، كي لا تستسهل قرار الاتصال، وتخيلت صوته يردّ:

- "نعم".

وأبعدت الخاطر، فأتاها عنوة، تبعده فيعود، أمسكت الهاتف بعصبية، وبعصبية اتصلت بأحد الرجال الذين تكلمهم:

- "شاخبارك.. أنا زينة، ويا هالشغل.. حفلة؟ متى؟ الخميس اللي جاي؟ أوكي، لا ما عندي ارتباطات، يلا والله من زمان We didn't have fun "[25].

لكن مقاومتها بدأت تضعف، فأرسلت رسالة sms لهاتف سالم تقول فيها:

- Hi.

وردّ بعد فترة عليها:

- "Hi شخبارك"؟

فرحت أنه ردّ، فاستمرت بالمحادثة:

- "أنا أوكي، وأنت"؟

- "أنا بعد أوكي".

- "أقدر أكلمك"؟

---

(25) لم نستمتع.

- "طبعاً".

فاتصلت على عجل به:

- "ألو".

- "أهلين، شلونك"؟

تغير صوتها وهي تقول:

- I miss you[26].

- Thank you، I miss you too.

كانت مشاعرها وهي تتحدث وتستمع لسالم، تختلف عن مشاعرها وهي تتحدث إلى ذاك الرجل قبل قليل، وأحست بتغير صوتها وجلستها، وكأن شيئاً في سوائلها وهرموناتها قد تحرك، كان في صوته عمق وكاريزما، يجبر أنوثتها على التفجر، كينابيع في الصحراء، وهذا بالضبط ما تحبه وتكرهه في علاقتها به، لكنها تظل مأخوذة بصوته، مفتونة بسحره، ذائبة في رجولته.

كانت تود أن تقول له، لننسَ ما حدث ونبدأ من جديد، ولكن عوضاً عن ذلك قالت:

---

(26) أفتقدك.

- "حبيت أسلم عليك، وأسأل عنك".

فردّ:

- "شكراً، خلك على تواصل".
- "إرسل لي إيميلك، عشان ندردش Some times".
- "أوكي، يسعدني".
- "أوكي، نشوفك، باي".
- "باي".

ظلت ممسكة بالهاتف، وأحست بسخونة يدها عليه، هل هذا ما تريده؟ التخلي عن حريتها ومبادئها؟ وإلقاء نفسها كجارية في أحضانه؟ أليس في الحب استعباد ومذلة؟

Clean cut

بعض الناس، يقرأون برجهم اليومي، ليعرفوا حظهم أو ما ينتظرهم، أما سالم فكان يقرأ الماضي، ليعرف ما ينتظره في المستقبل، حتى أصبح جون هوبكنز قريباً منه لدرجة سماع صوته وهو يتحدث إليه، يأتيه في التنويم واليقظة والنوم، ويزوده بالحكم والنصائح، بطرق مباشرة وغير مباشرة.

كان يشعر أحياناً، أنه يتقمص جون هوبكنز، ويرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويتكلم بلسانه، ويشعر بشعوره. كان متيقناً من أن جون لديه رسالة يريد أن يوصلها لسالم، قد تكون رسالة تتعلق بعلاقة الحب الملتبسة مع ربيكا / شيخة، والدرس الذي يجب أن يستفيد سالم منه. فالماضي هو عبر ودروس للحاضر والمستقبل، وقد تكون إشارات كونية، يجب أن يلتقطها، إذ لا شيء يحدث مصادفة، وأرواح الآباء والأجداد، هي خير معين ومعلم للبشر.

قد يكون سلوكه ومشاعره ومصيره، لها علاقة بحياته السابقة. فإذا كان محتاراً مما يحدث له، فسيجد التفسير في حياته السابقة. وأبرز ما في تلك الحياة هو علاقة الحب، فجون يريد أن يقول له شيئاً، يريد أن يقول إننا أمام علاقة غريبة، غير طبيعية، وتعلُّقنا بامرأة مثل هذه، أمر غير طبيعي، فيه كثير من الألم. لكن هذه المرأة مريضة، لا تستطيع الإقلاع عن إدمان العلاقات الجنسية، وتعتبر نفسها بريئة، وتصدق نفسها.

استطاع جون أن يفسر كل شيء، ما عدا سبب التعلق بشيخة، المرأة التي ينفر منها كل رجل، وأن حالة الحب حالة ليس لها تفسير منطقي، فلماذا لم يتعلق أو يعجب بجيوفانا أو ميساء؟ وهما تمثّلان نماذج للمرأة النزيهة الرقيقة، بالمفهوم العام المتعارف عليه. أهو شيء قدَري لا مناص منه؟ أهو انجذاب للقطب السالب؟ أم سخرية الكون منه؟ أهو شيء في طفولته، أم في حياته السابقة؟ لماذا ينجذب للأضداد؟!

في ستينيات القرن العشرين، عندما كان طفلاً

ومراهقاً، كان يحب لحدّ التقديس نموذج الفتاة الكويتية السمراء، التي يسميها clean cut[27]، بشعرها الأسود الفاحم، بشفتيها، بعينيها الواسعتين، وبشرتها الناعمة، التي تعلن حركاتها ومشيتها عن أنوثة، والتي تشي ابتسامتها عن جمال رائق في داخلها. تحب بكلّها، تشع بهالة وطاقة فاتنة، يستطيع الإنسان تمييزها من بعيد، حتى وإن كانت بين آلاف النساء. لها حضور وجاذبية يأخذان الألباب، فأين اختفت هذه الفتاة؟ كيف تلاشى هذا النموذج؟ كانت في بحمدون بالسبعينيات، كانت تدرس في القاهرة، وفي عقد الثمانينات اختفت فجأة، وظهرت نماذج أخرى لا تمتُّ لكويتية الستينيات والسبعينيات بصلة، وعلى مر العقود التي تلت ذلك، ظهرت نماذج لفتيات ونساء غريبات عليه، لسن فقط يرفضن المصافحة، ولكنهن مختلفات في كل شيء، عن نموذج الكويتية الذي يحبه إلى حدّ التقديس.

الآن لم تعد الفتيات clean cut، هناك شيء مشوَّه

---

(27) القطع النظيف.

فيهن، قد يكون سلوكهن، أو مظهرهن، أو تفكيرهن.
راودته رغبة عبثية بسؤال إحداهن:

- "ما شفت كويتية أوصافها كذا وكذا"؟

كان يبحث عنها في كل مكان عبثاً. بحث في المجمعات التجارية، في دور السينما، في المطار، ولكنها اختفت، وكأنها "أوفروديت" أتت لتشعل الحب في قلوب الناس، ثم عادت إلى الأكرابولس، تاركة قلوب الرجال تنزف وجداً وعشقاً. رحلت إلى الأبد ولم تترك غير الافتقاد.

* * *

في آخر مرة نوّم نفسه فيها، وعاد إلى حياته السابقة، شعر كأن جون هوبكنز يكلمه، كان يقول:

- ألمي لفقدها كبير جداً، رغم كل ما اقترفت، وهذا خطإي، لأنني انسقت لحبها، ولم أنسحب في الوقت المناسب، كنت أنانياً وانتهازياً، لأني تركت خيط اتصال، لأني أبقيتها احتياطياً لمتعتي، متى ما رغبت.

لا أنكر أنها كانت تشعرني بشيء، لم تستطع بقية

النساء أن يشعرني به. نحن البشر نضيع دائماً إشارات الكون لنا، ولا نأخذها مأخذ الجد، لا نتوقف لنسأل أنفسنا أسئلة فلسفية، عن أوضاعنا في الحياة، عن أسبابها، عمّا يريد الكون منا، ونأخذ الأمور بتطرف، إما أن نكون مثاليين مملين، متناقضين مع ما نحب أن نفعله في الحياة، عبيداً لاعتبارات المجتمع والدين والعرف، وإما عبثيين دون مسؤولية، لا نفكر إلا في اللذة. وأظن بأننا في كلتا الحالتين مرضى، لكن ما لا أقبله إطلاقاً هو الكذب والزيف. كل الناس يعتقدون أنهم على حق، ويحتكرون هذا الحق، ولكننا نظل في بحث دائم عن شيء لا نعرفه، ونعتقد أن لدينا رسالة أو مهمة ولكن لا نعرف ما هي، حتى نموت ونحن نبحث.

ربيكا كانت تبحث عن شيء يمتعها، أو يلبي شيئاً في داخلها. وعندما وجدته، بحثت عن متعة أكبر وأكبر، حتى أدى ذلك إلى حتفها، وقد تكون متعة الموت هي ما تبحث عنه. هناك لذة في الفناء، الحب هو نزعة للفناء في الآخر، والرعشة الجنسية فناء كخروج الروح من الجسد،

ورحلتنا الزمنية هي سعي حثيث وجري للوصول إلى لحظة الفناء.

والذي وجد أن الموت أفضل من العيش، فقتل نفسه. وربما ربيكا فعلت نفس الشيء لكن بطريقة أخرى. هل نستطيع أن نغير أقدارنا؟ ولو عشت حياة أخرى، فهل سأغير شيئاً؟

* * *

لذة الفناء

كانت ريبكا تتصرف بشكل جنوني، فتقضي وقتاً طويلاً في إيذاء نفسها، تجلد ظهرها العاري وردفيها بالحزام، حتى يكاد الدم يطفر منهما، وتدمي نفسها بالموسى، شارطة فخذيها، حتى لم تعد هناك بقعة دون جرح. لكنها مع ذلك لم تصل إلى اللذة التي تريد، كانت تبكي وهي تعذب نفسها ليس من الألم، ولكن لعدم إشباعها لنفسها. كانت كمدمن المخدرات، الذي يزيد جرعة التعاطي في كل مرة، حتى يصل إلى جرعة تودي بحياته.

كانت تذهب إلى الحانات الرخيصة، بعد أن تتنكر بثياب الخدم، وتهَب نفسها لأكثر من رجل، صارخة بهم وراجية أحياناً أن يكونوا عنيفين معها. وأحياناً تضطر إلى ضربهم وإهانتهم، لكي يردوا الضرب لها، لكنها لم تكن تشبع. فأصبحت تعاشر ثلاثة وأكثر في الليلة الواحدة، حتى نفر منها الرجال، ولم توفر حتى الشحاذين، أو

المشردين في الشوارع، وصلت إلى حالة تدهور شديدة، حتى أن والدها بدأ يلحظ عليها تغيُّرات، فسأل زوجته ولكنها بررت ذلك باضطراب الهرمونات، فلم يسأل مرة أخرى. فهو لا يريد أن يتدخل في الأمور النسوية، لكن والدتها التي كانت قلقة عليها، أخفت خروجها من المنزل، في أوقات غير مناسبة.

كانت ربيكا في حالة ضياع، ولم يكن لديها ملجأ غير جون. فهو من تشعر معه بشكل مختلف، وكانت تحاول إخفاء علاقاتها وسوء حالتها عنه، لكنه كان يسمع بفضائحها، ولِمَ لم يقطع علاقته بها، بل كان يستفيد بانتهازية منها، كمصدر للمتعة.

وتذكرت في يوم ما، اللورد العجوز وليام دكنسن، فهو الوحيد الذي كان يتلذذ بالعنف معها، يفهمها كما يفهم مدمن مدمناً آخر. انطلقت على فرسها نحو مزرعته، تسابق الريح، وتقفز فوق الحواجز التي تعترضها، وتشتت قطعان الخراف من على الطريق، كانت تلسع ردف الفرس بالسوط، وتضرب بعقبيها خاصرتي الحيوان المسكين،

حتى تعرقّت ونفثت بخاراً من منخريها المفتوحين على آخرهما.

ولما وصلت قفزت من على صهوة الفرس، واتجهت إلى داخل المنزل، دون أن تلتفت إلى رجاء الخادمة، بأن تنتظر ريثما تبلغ سيدها. ولكن ربيكا دخلت عدة غرف وصالات، تبحث عن اللورد. وأخيراً فتحت باب المكتبة، ووقفت تنظر إليه لاهثة، محمرة الوجه، كان متفاجئاً برؤيتها، لكنه أشار بيده لكي تخرج الخادمة، قائلاً:

- لا بأس.

أقفلت ربيكا الباب خلفها، وجلست على كرسي مقابل، ووضعت وجهها بين كفيها وبكت. فهم اللورد ما تعانيه، فنهض واتجه إليها واحتضن رأسها قائلاً:

- عادي يا صغيرتي، عادي.. أنت هنا الآن، هذا كل ما يهم.

أعطاها منديله كي تمسح دموعها، وصب لها كأساً من الكونياك، رشفت منه فهدأت، وأجالت ناظريها في المكتبة الكبيرة، ولاحظت عدداً من رؤوس الحيوانات المحنطة، التي اصطادها اللورد من بلدان مختلفة. كانت

رؤوس أيائل، وخنازير برية، ونمور، ودببة، ولاحظت أسلحة كثيرة معلّقة، بنادق وسيوفاً وخناجر، كل شيء يدل على عنف شخصيته، وتخيلت أن رأسها معلّق مع رؤوس الحيوانات.

تخيلت كيف قُتلت هذه الحيوانات، وكيف قطع اللورد رأسها بنفسه وبوحشية، تناولت خنجراً حاداً، وتأملته وتلمسته، فأثيرت وتغيّر تنفُّسها، ونظرت في عيني اللورد، ونظر إليها وبدأ تنفُّسه يتغير أيضاً، هجم كلٌّ منهما على الآخر بقبلة عنيفة، وعض اللورد شفة ربيكا السفلى فأدماها، ولعق دمها وفعلت مثله، ومزّق الواحد منهما ملابس الآخر، ورماها على ظهرها على الأرض، وعضها في عدة أماكن في جسدها، وبدأت متعتهما تتصاعد. وعندما أطبق على عنقها بقوة، وهو يصدر صوتاً مخيفاً، كالحيوان الضاري وهو ينهش فريسته، شعرت ربيكا بمتعة كبيرة، وإثارة جنسية غير محدودة، وازرقّت شفتاها، وخرج لسانها، وجحظت عيناها، لكن صوتها لم يكن صوت من يُحتضر، بل صوت المستمتع جنسياً. وهو كان سعيداً بتلبية رغبتها، مستثاراً لحدٍّ لا يوصف، غائباً عن

الوعي. فاستسلمت ربيكا لضغط يديه الوحشيتين، وأغمضت عينيها، ولفظت نفَساً أخيراً، لكنه ظل يعصر بالرقبة الصغيرة، حتى وصل إلى قِمَّة اللذة، ولكي يزيد متعته ردد:

- هذا ما أردته يا صغيرتي، أليس كذلك؟

وعندما هدأ قليلاً، نظر إلى جثة ربيكا الخامدة، وصرخ بوحشية.

Chat[28]

كان سالم يتألم من مصير ربيكا، وكان قلقاً أن يحدث شيء بهذا السوء في حياته، فحتى الآن هناك تشابه في العلاقتين، وهناك طباع مشتركة بينه وبين جون، وبين شيخة وربيكا.

أسيكون مصير شيخة كمصير ربيكا؟ ماذا يمكن أن يستفيد من الماضي؟ قد تكون الاستفادة هي فقط معرفة سبب تعلُّقه بشيخة، أو سبب حبه للحرية، وكرهه للارتباط، وقد يكون أيضاً معرفة مصدر موهبته الشعرية.

هو يعرف أن ما يحدث له ليس مصادفة، ومعرفته لحياته السابقة، هي إشارة من الكون للانتباه وخلق وعي جديد، لصنع ظروفه ورسم مصيره بنفسه. فعثرات الإنسان وحماقاته الماضية، هي دروس للمستقبل، ولذا سيعود إلى

---

(28) محادثة، أو دردشة.

حيواته السابقة، لعلّه يفهم نفسه والعالم من حوله أكثر، فقد تكون حياة جون السابقة، تحمل أجوبة أكثر وضوحاً، ولكن أليست الحياة سؤالاً كبيراً؟ ليس له إجابة، أليس من الأفضل أن نعيش فقط، ونستمتع بحريتنا الداخلية، ونبدأ من جديد كل يوم، فكل يوم هو أول يوم في بقية عمرنا.

* * *

أرسلت له شيخة رسالة على sms، تقول فيها:

- "تعال على المسنجر، أنا شابكة على النت".

فتح سالم صندوق المحادثة، في الإنترنت، فأرسلت شيخة على الفور:

- "شلونك يالغايب"؟

ردّ:

- "أنا زين ووسيم".
- "وأنا بعد حلوة، بس افتقدتك".
- "وأنا بعد".
- "بس شوقي لك أكبر، أفكر فيك ليل ونهار".

كان لديه إحساس غير مريح، وكأنه يستقبل طاقة

سلبية، فهو لا يشعر بصدق الكلمات، إذ من السهل معرفة ذلك، فإذا كانت الكلمات التي تكتب مشحونة بالصدق، فسيصل هذا الصدق. من السهل معرفة مزاج الآخر وحالته النفسية، من خلال كلماته المكتوبة، وهذا يفسر وصول الأدب الصادق لقلب المتلقي، فيتأثر به.

مع ذلك أجاب:

- "وأنا بعد، خطرت على بالي كثير".

تأخرت بالإجابة دقائق، ثم قالت:

- "بس خطرت على بالك"؟

- "يعني ما نسيتك، ولك مكان في قلبي".

تأخرت مرة أخرى بالإجابة، أكثر من المرة السابقة، فراوده هذا الإحساس السلبي، فكتب:

- "وينك"؟

فردت:

- "خلاص اتفقنا أشوفك اليوم بالشاليه".

استغرب الرد، فكر قليلاً قبل أن يرسل، فاكتشف أن حدسه في محله، فهي كانت تتحدث مع شخص آخر

إضافة إليه، وربما مع أكثر من شخص في نفس الوقت، ابتسم في داخله وقال لنفسه:

- "إذا الماي يروب، شيخة تتوب".

شعر بقرف لاستهانتها به، ولإدمانها على الوساخة، وشعر بأنه تدنّى وصغَّر نفسه وأهانها، فلم يستمر بالمحادثة؟ فكتب:

- "أستأذن، عندي شغل، باي".

وأقفل برنامج المحادثة فوراً، متمنياً وجود إشارة كونية قوية، تعيده إلى رشده، وينتزعها من اهتمامه إلى الأبد، وتساءل بغضب على نفسه:

- لماذا هذه بالذات؟! ما الذي أفعله بنفسي؟!

نهض عن كرسيه وهو يقول:

- "ألله يلعنك".

* * *

كان مدعواً لحفلة في شقة سرّية، من التي يستخدمها الأزواج كوكر للشرب، وتمضية الوقت مع بنات الهوى، في سهرات ماجنة، ينفسون فيها عن كآبة شخصياتهم في

بيوتهم وفي وظائفهم، حيث يظهرون العبوس في وجه زوجاتهم وأبنائهم، يصلّون طوال الأسبوع، وفي آخره يسهرون ويرقصون، بعد أن يخلعوا تحفُّظهم الثقيل.

ضغط سالم على زرّ الجرس، ففتح له رجل يمسك بكأس وسيكي، وحضنه الرجل بمودة مبالغة فيها، كانت أضواء الصالة الملونة خافتة، كانت موسيقى الرقص الشرقي مزعجة، والكنبات عليها رجال يحضنون نساءً ثملات. وإحداهن كانت ترقص، واضعة الكأس على رأسها، ظل واقفاً محاولاً أن يتبين الوجوه في هذا الجو الضبابي. أوقف أحدهم الموسيقى، وفتح الأنوار قائلاً بلسان ثقيل:

- "يا جماعة أعرِّفكم بسالم".

لاحظ سالم امرأة جالسة في حضن رجل له كرش كبير، وكانت تقبّله قبلة طويلة، بينما كان الرجل يضع كفه بين فخذيها، إلتفتت المرأة، نظرت إلى سالم بهلع، فابتسم لها محنياً رأسه وقال بتهذيب:

- "مساء الخير".

ثم قال لنفسه:

ـ "shit[29]"، هـل راح تـكـون مـعـاي فـي حـيـاتـي القادمة"؟

21 أكتوبر 2008م

(29) قذارة.

صدر للمؤلف

1- تعلق نقطة.. تسقط طق، مجموعة قصص، دار الفارابي 1983م، بيروت.

2- إرادة المعبود في حال أبي جاسم ذي الدخل المحدود، مجموعة قصص، الطبعة الأولى، دار الفارابي 1989م، بيروت.

الطبعة الثانية دار قرطاس 1995م، الكويت.

3- بدرية، رواية، الطبعة الأولى، دار الفارابي 1989م، بيروت.

الطبعة الثانية، دار النهج الجديد 1993م، الكويت.

4- طلقة في صدر الشمال، متتالية قصصية، الطبعة الأولى، دار الفارابي 1992م، بيروت.

الطبعة الثانية، دار قرطاس 1995م، الكويت.

5- الريح تهزها الأشجار، قصص، دار النهج الجديد 1994م، الكويت.

6- إيكاروس، نص مسرحي وقصص، الكويت 1997م.
7- موستيك، رواية، الطبعة الأولى، دار الفارابي 2008م، بيروت.
8- اليوم التالي لأمس، رواية، الطبعة الأولى، دار الفارابي 2009م، بيروت.
9- أما بعد، رواية، الطبعة الأولى، دار الفارابي 2010م، بيروت.

صدر له كذلك في مجالات أخرى:

10- العلاج بالطاقة الكونية، ريكي 1 وريكي 2، دار قرطاس 2003، الكويت.
11- علم وفن التنويم، دار قرطاس 2004م، الكويت.

عناوين المؤلف

e-mail: osbohatw@gmail.com

www.alrujaibcenter.com

www.osboha.blogspot.com

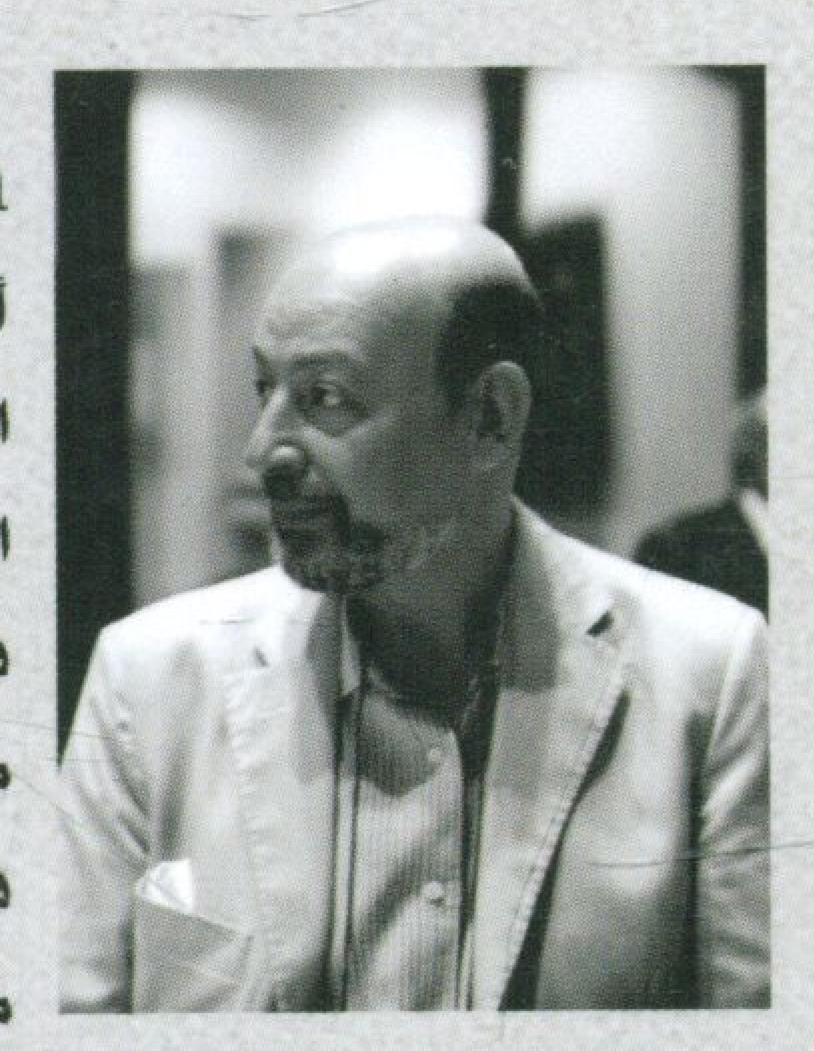
العنوان البريدي للمؤلف

ص ب : 2752 القرين 47378 الكويت

هاتف: 5660704-00965

تليفاكس: 5660705-00965

المحتويات



كنت قد عملت جلسات العودة للحياة السابقة past life regression، لمئات من العملاء في عيادتي وأماكن أخرى، وكانت النتائج مذهلة لهم ولي، واستفدنا من هذه التقنية لمعالجة جروح الماضي، والمؤثرة في حياتهم الحاضرة، مثل بعض حالات الفوبيا، التي لا يوجد لها جذور في حياة أو طفولة البعض، كما زارني بعض الأشخاص من الكويت، أو من بلدان عربية، فقط لمعرفة من كانوا في الحياة السابقة، والاستمتاع بهذه المعرفة، أو اكتشاف مواهبهم وإمكانياتهم السابقة.

وعملت جلسات العودة إلى الماضي لنفسي، فاكتشفت أنني كنت شاعراً إنجليزياً، قد يكون أسمي "جون هوبكنز"، وذلك في أعوام 1800م، والحياة التي قبلها، في أعوام 1700م، كنت كاتباً في البلاط الملكي البريطاني، ومتُّ كبيراً بالسن، ورأيت نفسي وأنا أموت، أما الحياة السابقة والثالثة فقد كنت في الحضارة الإغريقية، وهذا يفسر حبي لأجواء البحر المتوسط، وكل ما يتعلق به، وكذلك حبي للتاريخ اليوناني، وقصص الإلياذة منذ كنت صغيراً.

من المقدمة

وليد الرجيب

- كاتب وروائي كويتي، نشر عدداً من المجموعات القص... بدرية التي نالت شهرة كبيرة في الساحة الأدبية العربي... وكتب عنها الكثير من النقاد العرب.
- نشر كتابين عن فن وعلم التنويم، والعلاج بالطاقة الكوني... استشارياً نفسياً واجتماعياً، وأستاذاً دولياً بالتنويم وممثل... للمنومين وعضو البورد فيها، إضافة إلى تخصصات أخرى... الذاتية.
- حاصل على جائزتين في الأدب، الأولى من مؤسسة التقد... عام 1994م، والثانية جائزة الدولة التشجيعية من المج... والفنون والآداب في الكويت عام 1997م.





ISBN 978-9953-71-630-5
9 789953 716305